قراءة في شعر يحيى بن حكم الغزال

شعبان محمد مرسي

هو يحيى بن حكم البكري الجياني، وهذه النسبة إلى منطقة جيان، وهي مدينة جميلة بالأندلس، وصفها أبو عبدالله الحميري في كتابه فقال: "مدينة بالأندلس بينها وبين بياسة ستون ميلا، وهي كثيرة الخصب، رخيصة الأسعار، كثيرة اللحوم والعسل، ولها زائد على ثلاثة آلاف قرية، كلها يربى فيها دود الحرير، وبها جنات وبساتين ومزارع، وغلات القمح والشعير والباقلاء وسائر الحبوب، وعلى ميل منها نهر بلون، وهو نهر كبير، عليه أرحاء كثيرة جدا، وبها مسجد جامع، وعلماء جلة"[١].

في هذه الكورة الرائعة الغنية كانت أسرة الشاعر وقبيلته، لكن يبدو أن والد الشاعر رحل إلى قرطبة وأقام فيها، وترك باقي القبيلة، ولذا نشأ الشاعر يحيى في عاصمة الدولة الإسلامية، وكانت مقر الثقافة العربية والإسلامية الواسعة العميقة. كما أنها كانت موطن العلوم الطبيعية والرياضية، أو علوم الأوائل على حد قول القدماء.

متى ولد يحيى بن حكم؟

يرى أبو عبدالله الحميري أنه ولد سنة ١٥٦هـ، وهو ينقل هذا التاريخ عن حبيب بن أحمد الشطجيري، الذي جمع **ديوان** الشاعر يحيى[٢]، ثم حدد الحميدي أيضًا عام وفاته وهو ٢٥٠هـ، فيكون بذلك قد عاش أربعة وتسعين عاما.

هذا ما ورد في تاريخ ولادته ووفاته، وقد نقله المؤرخون اللاحقون من الحميدي، ولكن في نفسي شيء من هذا التحديد لتاريخ ميلاده، لأن الشاعر نفسه يقول في شعره:

١- أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسام عباس، مؤسسة ناصر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠م، ص ١٨٣.

٢- أبو عبدالله محمد بن فتوح الحميدي، **جذوة المقتبس**، الدار المصرية للتأليف والنشر، ١٩٦٦م، ص ٣٧٥.

ألست ترى أن الزمان طواني وبدل خلقي كله وبراني
تحيفني عضوا فعضوا فلم يدع سوى اسمي صحيحا وحده ولساني
ولو كانت الأسماء يدخلها البلى لقد بلي اسمي لامتداد زماني
وما لي لا أبلى لتسعين حجة وسبع أتت من بعدها سنتان[٣]

فإن كانت رواية هذا البيت صحيحة فقد عاش حوالي مائة سنة؛ لأنه ربما عاش عاما بعد قوله هذا، وربما أكثر، فهو إذن ولد سنة ١٥٠هـ، وتوفي سنة ٢٥٠هـ، وتاريخ الوفاة متفق عليه. وقد لاحظ البنداق هذا البيت الأخير، ورأى أن الغزال عاش مائة سنة[٤] ويلحق اسم الشاعر دائما بوصف الغزال، وقد نص الحميدي على ضبط الصفة، فقال: "الغزال بتخفيف الزاي"[٥] لكن لماذا لقب بهذا اللقب؟ يذكر المؤرخون أنه كان جميلا وسيما، فيقول المؤرخ تمام بن علقمة: "كان الغزال في اكتهاله وسيما، وكان في صباه جميلا، ولذلك سمي بالغزال"[٦]، ويبدو أنه ظل على هذا الحسن، لأن الأمير عبد الرحمن بن الحكم داعبه يوما عندما دخل عليه الشاعر قائلا له: "جاء الغزال بحسنه وجماله".

فقال وزير عبدالرحمن للشاعر: أجز ما قال الأمير.

فقال يحيى بن الحكم:

قال الأمير مداعبا بمقاله جاء الغزال بحسنه وجماله
أين الجمال من امرئ أربى على متعدد التسعين من أحواله
وهل الجمال له الجمال من امرئ ألقاه ريب الدهر في أغلاله
وأعاده من بعد جدته بلى وأحال رونق حاله عن حاله[٧]

وقد ذكر المقري أن يحيى الغزال عاصر خمسة من ملوك الأندلس، هم: عبد الرحمن بن معاوية، وهشام بن عبد الرحمن والحكم بن هشام وعبد الرحمن بن الحكم ومحمد بن عبد الرحمن، وهو ينقل هذا

٣- **ديوان يحيى بن حكم الغزال**، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٢م، ص ٧٩.

٤- محمد صالح البنداق، **يحيى بن حكم الغزال**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص ٢١.

٥- **جذوة المقتبس**، ص ٣٧٥.

٦- ابن دحية، **المطرب من أشعار أهل المغرب**، تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخرين، دار الكتب المصرية، ص ١٤٣، وكتاب تمام بن علقمة مفقود.

٧- **ديوان الغزال**، ص ٧٠.

الكلام عن مؤرخ الأندلس أبي مروان بن حيان[٨] وقد قال الشاعر نفسه:

أدركت بالمصر ملوكا أربعة وخامسا هذا الذي نحن معه

كان الغزال يحفظ القرآن، ويحسن التفسير، ويروي الحديث، ويتقن الفقه، وهو متعمق في الفلسفة والحساب والفلك والتنجيم، وكان متبحرا في اللغة وآدابها، حافظا لكثير من الشعر القديم، ويظهر من شعره الباقي تأثره بشعراء العصر العباسي مثل أبي نواس، وأبي حكيمة وغيرهم.

ويتصف الغزال بالحكمة وجودة الرأي وحسن التصرف، ولذلك اختاره عبدالرحمن الأوسط سفيرا له مرتين، الأولى إلى القسطنطينية، والثانية إلى الدانمارك. قال ابن دحية: "ولما وفد على السلطان عبدالرحمن رسل ملك المجوس تطلب الصلح بعد خروجهم من إشبيلية، وإيقاعهم بجهاتها ثم هزيمتهم بها، وقتل قائد الأسطول فيها، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك، فأمر الغزال أن يمشي في رسالته مع رسل ملكهم، لما كان الغزال عليه من حدة الخاطر، وبديه الجواب والنجدة والإقدام، والدخول والخروج من كل باب...[٩].

هذه الصفات النفسية هي صفات السفير الناجح الذي يفيد بلاده، ويكسب لها الفوز، وقد كان ملوك الأندلس في عصر بني أمية يعنون بوظيفة السفير، ويختارون لها أفضل العقول.

ما الوظائف التي تولاها الغزال؟

علاوة على كونه شاعرًا عالمًا حكيمًا، أسند له الأمير عبدالرحمن الأوسط قبض الأعشار ببلاط مروان، واختزانها في الأهراء، أي المخازن، وكان بنو مروان يخزنون الحبوب للجهاد، ولوقت الحاجة، فامتلأت تلك المخازن، وحدث جفاف في البلاد، ونقصت الأغذية، وارتفع سعر الغلال، فأخذ يحيى الغزال يبيع ما في الأهراء للناس، حتى أتى على كثير منها، ثم تغير الحال، وكثرت الغلال بعد سقوط الأمطار، وانخفض السعر، وقد بلغ الأمير عبدالرحمن ما فعل الخازن يحيى الغزال فأمر بحبسه، وطلب منه أداء ثمن ما باعه، فقال أشتري قدر ما بعت، وكان الفرق بين السعرين كبيرا، فأبى الأمير، ولما كان في السجن نظم قصيدة طويلة بديعة في مدح الأمير عبدالرحمن الأوسط، ولما أنشدت أمامه استحسنها وعفا عنه[١٠].

٨- المقري، **نفح الطيب**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م، ج ٢، ص ٢٥٤.

٩- **المطرب**، ص ١٣٨ - ١٣٩.

١٠- المرجع السابق، ص ١٣٦.

ويفسر الدكتور محمد رضوان الداية هذا الموقف بقوله: "ويتوجه تفسير الخبر عن قلة الاحتراز والإتلاف أكثر مما يتوجه إلى صفات أخرى من الاحتجان والجشع، لأن مجريات حياة الغزال وأخباره فيما بعد لا تدل على مثل ذلك...[١١]. يحتمل هذا التعليل، ولكن أرى أن الغزال كان كريما جوادا، وكان القحط أو المجاعة قد عمت البلاد، فتصرف في الغلال كي ينقذ الشعب من الجوع، وأما احتفاظه بفرق السعر فربما أنفقه أيضًا على المساكين، فهناك أشياء كثيرة سكت عنها المؤرخون، غير أننا يمكن أن نستنبطها من الموازنة بين المواقف المختلفة، والمقارنة بينها.

وأسند إليه الأمير عبدالرحمن السفارة إلى ملك الروم البيزنطيين، فذهب ونجحت سفارته، وكانت له صلة طيبة بالإمبراطور وزوجته تيودورا، وقد وصف جمالها وتغزل بها في قصيدة جميلة.

وسافر في رحلة أخرى إلى بلاد الدانمارك، وعقد الهدنة التي طلبوها معهم، والتقى بالملكة، وداعبها بطريقة دبلوماسية، كانت سببا في نجاح سفارته، وقد عاد بهدايا كثيرة للأمير عبدالرحمن.

وربما كانت له وظائف أخرى، ولكن كتب التاريخ لم تذكرها، بيد أننا نجد في شعره ما يدل على أنه كان مستشارا لبعض القضاة، أو بتعبير الأندلسيين "مشاورا". يقول الغزال:

يقول لي القاضي معاذ مشاورا ... وولى امرأ فيما يرى من ذوي الفضل
فديتك ماذا تحسب المرء صانعا ... فقلت وماذا يفعل الدب بالنحل
يدق خلاياها ويأكل شهدها ... ويترك للذبان ما كان من فضل[١٢]

ففي هذا الشعر نجد القاضي معاذ بن عثمان الشعباني يطلب رأي الغزال في هذين الرجلين اللذين ولاهما أحباسه في قرطبة، أي أوقافه، فخانا الأمانة ونهباها، وقد كان معاذ يحسن الظن بهما، فخاب ظنه، وكان رأي الغزال فيهما أنهما مثل الدب يأكل العسل، ويقتل النحل، وهذا أسوأ وصف لهذين الرجلين غير الأمينين.

وقد أورد المقري اسم الغزال ضمن الراحلين إلى المشرق، فلعله رحل للازدياد من العلم، والتجارب الحياتية، ولعله أجبر على الرحيل لما أكثر من هجاء زرياب بن نافع المغني، وكان أثيرا لدى عبدالرحمن الأوسط، ولدى عليه القوم في الأندلس. والغالب على الظن أنه رحل حبا للرحلة إلى المشرق على عادة أهل الأندلس طلبا للعلم، أو رغبة في الحج، إلا أننا لا ندري أحج أم لا؟

١١- مقدمة **ديوان الغزال**، ص ١١.

١٢- أبو عبدالله محمد بن الحارث الخشني، **قضاة قرطبة**، الدار المصرية للتاليف والنشر، ١٩٦٦م، ص ٥٦.

ديوان الغزال:

كان يحيى الغزال قوي الموهبة، غزير الشعر، ينظم في كل ما وقعت عليه عينه، وفي كل ما يحدث في حياة الأندلسيين، وكان كثير التأمل يميل إلى الحكمة، ولذلك نعته القدماء بالحكيم، ولا نعرف هل رتب الشاعر شعره، وجمعه ونقاه مما لا يراه جديرا بالإثبات أو لا؟ وإنما الذي نعرفه هو أن الشاعر القرطبي حبيب بن أحمد الشطجيري هو الذي جمع شعره ورتبه، ويقول الحميدي: "وشعره أي شعر يحيى الغزال، كثير مجموع، جمعه حبيب بن أحمد"(١٣).

ولا شك أن شعر الغزال كان كثيرا، لأنه عاش طويلا، حوالي مائة سنة، ولم يكن من عبيد الشعر، وإنما كان مطبوعا، ينظمه سريعا كأنه مرتجل، وحوادث الأندلس عديدة، لذا كانت سببا من أسباب غزارة شعره علاوة على الموهبة.

لقد ترجم الحميدي لجامع **ديوان الغزال** فقال: "حبيب بن أحمد الشطجيري، شاعر من أعيان أهل الأدب، مشهور من أهل قرطبة، أدرك أيام حكم المستنصر، وبلغ سنا عالية(١٤). غير أن الحميدي لم يحدد تاريخ وفاته بالضبط، وإنما ذكره على التقريب قائلا: "إنه توفي قريبا من الثلاثين وأربع مائة"(١٥). ونص هنا أيضًا أنه جامع **ديوان** يحيى بن حكم الغزال ومرتبه على حروف المعجم. وقد روى الحميدي عن شيخه ابن حزام بعض شعر الغزال، مما يعني أن أهل الأندلس كانوا يروون من شعره، ويستشهدون به، ولا شك أن إعجاب الشطجيري بقصائد الغزال هو الدافع له إلى جمعه.

أين هذا الديوان الضخم الآن؟ لسوء الحظ مازال مفقودا، ولعل الزمن يكشف عن نسخة منه، وقد عني بعض الدارسين بجمع ما تبقى من شعره في كتب التاريخ والأدب والتراجم، وممن صنع هذا محمد رضوان الداية، فقد جمع شعره، وسماه مجازا **ديوان يحيى بن حكم الغزال** وهي النسخة التي أعتمد عليها في هذه الدراسة.

الأغراض الشعرية:

يبدو أن الغزال قد نظم في موضوعات كثيرة عبر حياته المديدة، غير أن ما بقي من شعره يضم عدة أغراض هي: الغزل والوصف والمدح والفخر والاعتذار والهجاء والنقد الاجتماعي والحكمة والخمر.

١٣- **جذوة المقتبس**، ص ٣٧٥.

١٤- المرجع السابق، ص ١٩٨.

١٥- المرجع السابق، ص ١٩٩.

١- **الغزل:**

هذا الموضوع الحي ينظم فيه الشعراء منذ القدم وحتى يومنا هذا، وسينظمون فيه كثيرا، لأنه مرتبط بإنسانية الإنسان، وذو صلة بالحياة نفسها، فهو أصل من الأصول التي تبنى عليها.

وقد قرض فيه الغزال قصائد ومقطعات، بعضها مستقل، وبعضها الآخر مقدمات لأغراض أخرى، أو هو قسم من قصائد تحوي موضوعات عديدة، والمسألة المهمة في هذا الموضوع، هل أحب يحيى بن حكم الغزال امرأة؟ ومن التي أحبها؟ وهل تزوج أو لم يتزوج؟ هذه الأسئلة لم نجد لها جوابا في سيرته المقتضبة، بل هي تعريف به، وليست سيرة على الحقيقة.

ولكن الطبيعة البشرية تحتم أن يكون قد مال قلبه نحو امرأة ما ولكن عادة الشعراء العرب تركزت حول إخفاء اسم الحبيبة، والرمز لها بأسماء مختلفة مثل ليلى وسلمى وسعاد وهند ودعد وغيرها، لا يستثنى من هذا الاتجاه سوى قليل من الشعراء، وهم شعراء بني عذرة، وعدد قليل آخر من غيرهم. وأسماء النساء اللاتي ورد ذكرهن في شعر الغزل هي:

١- نود زوجة ملك الدانمارك. ٢- لعوب. ٣- زينب.

٤- تيودورا زوجة إمبراطور الدولة الرومانية البيزنطية. ٥- سلمى.

أما تغزل الشاعر بالملكة نود، فهو نابع من التأثر بجمالها، وكذلك فيه نوع من المودة السياسية، واسمها بالنون كما جاء في **المطرب**، ولكن جامع شعره الدكتور الداية، أثبت رواية **النفح** بالتاء، وهنا خطأ، لأن نود اسم ملكة الدانمارك، وتود اختصار تيودورا ملكة بيزنطة، ويرد اسمها في قصيدة أخرى، فحدث التحريف والتصحيف والخلط.

كان الغزال يجتمع مع الملكة نود، وكانت تسأله عن أحوال المسلمين وعاداتهم الاجتماعية، وتسأله عن نسائهم، وهو يجيبها، وكانت تعجب بلباقته وذكائه وظرفه، فسألته مرة عن سنه، وكان في ذلك الوقت في الخمسين قد وخطه الشيب، فأجابها أنه عشرون سنة، فلما ترجم لها الترجمان ذلك، قالت: والذي سنه عشرون عاما يكون به شيب؟ فترجم له المترجم، فابتسم وقال: ألم تر قط مهرا ينتج وهو أشهب؟ أي مختلط شعره الأبيض بالأسود، فضحكت، وأنشد قصيدة جميلة أشار فيها إلى ذلك:

كلفت يا قلبي هوى متعبا غالبت منه الضيغم الأغلبا

إني تعلقت مجوسية تأبى لشمس الحسن أن تغربا

أقصى بلاد الله في حيث لا يلقى إليها ذاهب مذهبا

يا نود يا رود الشباب التي	تطلع من أزرارها الكوكبا
يا بأبى الشخص الذي لا أرى	أحلى على قلبي ولا أعذبا
إن قلت يوما إن عيني رأت	مشبهه لم أعد أن أكذبا
قالت أرى فوديه قد نورا	دعابة توجب أن أدعبا
قلت لها يا بأبي إنه	قد ينتج المهر كذا أشهبا
فاستضحكت عجبا بقولي لها	وإنما قلت لكي تعجبا[١٦]

هذه الصورة الشعرية الجميلة متحدة مترابطة، فهو يعبر عن مدى الحب العميق الذي ملأ قلبه عندما رأى هذه الملكة الجميلة، وصور هذا الحب بالأسد الغضنفر الذي يغلب من تعرض له، ثم بين أن هذه المحبوبة مجوسية وليس من بنات المسلمين، ورسم لها صورة فيها مبالغة شعرية رائعة، وهي شمس الحسن وشمس الجمال دائمة لا تأفل أبدا، ولذا فهو مأخوذ بها، ثم أبان عن بعد بلادها، فهى في أقصى الشمال مسالكها وعرة، أو على حد المبالغة لا يجد لها السائر طريقا، وهنا يشير من طرف خفي إلى ما لاقاه في رحلته إلى تلك البلاد عبر البحر ويناديها نداء تحبب، ويذكر اسمها، ويصفها بأنها أجمل البنات، ناعمة أسيلة، جميلة الصدر، كأن فيه كواكب منيرة لامعة، فهي أصل النور والحسن، فالكواكب تطلع منها.

وهي صورة شعرية معتمدة على المبالغة، وهو يفديها بأبيه على عادة الشعراء والمتكلمين العرب، وهو يذكر أنها أحلى شخص في قلبه، ولم ير أفضل منها، ولو فرض جدلا أنه قال: إنه وجد أجمل منها، فهو كاذب مدع.

ويعرض الشاعر الحوار الذي دار بينه وبين نود بطريقة شعرية مكثفة فهي تقول بأنه قد ظهر الشيب في رأسه، واستخدم الشاعر عبارة رائعة "أرى فوديه قد نورا" فالشعر الأبيض في رأسه مثل النور وسط الظلام، أو هو مثل النوار الأبيض في الحديقة، وقولها هذا تقصد به الضحك معه، فأجابها بأنه لا يوجد عجب في ذلك، فالمهر يولد أشهب، ولا شك أن هذا قياس خاطئ، يعتمد على المغالطة، ولكنه قصد به الدعابة والمزاح. ولما سمعت الملكة منه هذا الكلام، أي أنه مثل المهر ضحكت وتعجبت من ظرفه ولباقته.

تلك صورة غزلية تعتمد حيوية التعبير ويسره وسهولة اللغة وحسن الحوار. ورغم مرور حوالي ألف ومائتي عام فما زالت القصيدة سهلة، كأنها من شعر العصر الحاضر. هكذا فإن الشاعر مطبوع لا يتكلف التقعر في اللغة، ولا يتعمد استعمال الغريب من الألفاظ.

١٦- **المطرب**، ص ١٤٤، و**الديوان**، ص ٣١، وفيه "حيث لا يلفي" والمعنى لا يتغير.

هذا الشعر البديع أثنى عليه ابن دحية، ووجده موازيا لشعر المشارقة، ولكن نقاد الشرق دائما يغمطون الأندلسيين حقهم، ويعبر عن ذلك ابن دحية في عبارة لا تخلو من مرارة: "وهذا الشعر لو روي لعمر بن أبي ربيعة أو لبشار بن برد أو للعباس بن الأحنف، ومن سلك هذا المسلك من الشعراء المحسنين لاستغرب له، وإنما أوجب أن يكون ذكره منسيا أن كان أندلسيا، وإلا فما له أهمل؟ وما حق مثله أن يهمل... يا لله لأهل الشرق"(١٧). والمؤرخ تمام بن علقمة أراد أن يعرف حقا أكانت نود جميلة في الواقع أم هي صورة شعرية خيالية؟ فسأل الغزال عن الأمر فأجابه: "وأبيك لقد كانت فيها حلاوة، ولكني اجتلبت بهذا القول محبتها، ونلت منها فوق ما أردت"(١٨).

ونجد في شعر الغزال قصيدة غزلية فيها بعض المجون، أو هي من الشعر المكشوف، مع أن الرجل كان عفا مستقيما، غير أنه فيما يبدو أراد أن يثبت قدرته على النظم في كل موضوع، كما نظم في الخمر وهو لم يشربها قط، وقد قدم المقري لهذه القصيدة بقوله: "وله على أسلوب ابن أبي حكيمة"(١٩) ثم أورد القصيدة وعدد أبياتها ستة عشر بيتا. وهذا التقديم يوحي بأن الشاعر يجاري الشاعر العباسي أبا حكيمة، ليثبت مقدرته، كما جارى شعر أبي نواس في الخمر، فالتبس على العراقيين كما جاء في كتب التاريخ والأدب **كالمطرب**، وأبو حكيمة اسمه راشد بن إسحاق، وكان صديقا لمحمد بن عبدالملك الزيات، وشعره جيد، غير أنه مال إلى المجون، وبالغ في وصف عنته، وضعف منته، ورثى متاعه بقصائد كثيرة. وقال عنه ابن المعتز: "وأبو حكيمة هو الذي رثى متاعه بما لم يجئ أحد بمثله"(٢٠). وأورد له قصيدة في هذا الموضوع ليدل بها على صحة ما يقول. وقد أخذ منها جامع **ديوان الغزال** خمسة أبيات فقط من قصيدته وترك الباقي، كأنه نظر إلى الأخلاق العامة في هذا العصر، مع أن الأمانة كانت تقتضي نقل القصيدة كاملة، وناقل الكفر ليس بكافر كما يقول علماء المسلمين.

يقول الشاعر:

خرجت إليك وثوبها مقلوب ولقلبها طربا إليك وجيب
وكأنها في الدار حين تعرضت ظبي تعلل بالفلا مرعوب

١٧- **المطرب**، ص ١٤٥.

١٨- المرجع السابق، ص ١٤٣.

١٩- **النفح**، ج ٢، ص ٢٥٥.

٢٠- ابن المعتز، **طبقات الشعراء**، تحقيق: عبد الستار، دار المعارف، مصر، ط ٤، ١٩٨١م، ص ٣٠٩.

وتبسمت فأتتك حين تبسمت بجمان در لم يشنه ثقوب
ودعتك داعية الصبا فتطربت نفس إلى داعي الضلال طروب
وعرفت ما في نفسها فضممتها فتساقطت بهنانة رعبوب[٢١]

ويستمر الشاعر في وصف الموقف على طريقة القص، يبدي ويظهر ضعف قوته في صورة مأساوية تحتوي على بعض السخرية، ونلحظ أنه ينعت هذه المرأة بنعوت جميلة، ويبدو أنها كانت جارية له، فهو يشبهها بالغزال الذي يمرح في الصحراء، ويرسم صورة رائعة لابتسامتها، ويستعير اللؤلؤ ليصور به بياض أسنانها وحسنها، ثم يذكر ميله إليها، وميلها إليه، وتظن أنه قوي كما كان شابا، ولكن الحال تغيرت، فعجز عنها، وأخيرا تسخر هي منه في عبارة مضحكة وقد نص المقري على أن ابن دحية روى هذه القصيدة باختلاف في أبياتها، وبالرجوع إلى **المطرب** نرى ابن دحية يقول: "وقال في جارية اشتراها، واسمها لعوب...[٢٢]. ثم يورد القصيدة ومطلعها:

لم أنس إذ برزت إلى لعوب طربا وحيث قميصها مقلوب

ويرى الدكتور الداية أن هذه قصيدة أخرى، اختلطت بعض أبياتها بالقصيدة السابقة[٢٣]، ولكن يبدو أن كلام المقري صحيح، وهو أنها قصيدة واحدة اختلفت روايتها، وهي من الوزن نفسه والروي عينه.

وروى له ابن دحية قصيدة في مدح عبدالرحمن الأوسط والاعتذار له عما أحدثه في الأهراء، ولهذه القصيدة مقدمة غزلية جميلة تغزل فيها بزينب، وقد يكون هذا اسم امرأة حقيقية أحبها، وقد يكون رمزا شعريا فحسب، يقول ابن دحية: "فمن قوله (شعر الغزل) فيما ذكره تمام بن علقمة في تاريخه:

بعض تصابيك على زينب لا خير في الصبوة للأشيب
أبعد خمسين تقضتيها وافية تصبو إلى الربرب
كل رداح الردف خمصانة كالمهرة الضامر لم تركب

قال ابن دحية: "وفيه تشبيب حسن اختصرناه لطوله"[٢٤] وليته ما اختصره، لأن هذا القصيد

٢١- **النفح**، ج ٢، ص ٢٥٥، **الديوان**، ص ٣٣.
٢٢- **المطرب**، ص ١٤٩.
٢٣- **الديوان**، ص ٣٢.
٢٤- **المطرب**، ص ١٣٣ - ١٣٤.

جميل، والاختصار ضيع الصورة الكلية الرائعة، وقد زاد فيها جامع **الديوان** بيتين من كتاب **التشبيهات** لابن الكتاني هما:

أو درة ساعة ما استخرجت لم تمتهن بعد ولم تثقب
مشربة اللون متوع الضحى صفراء بالآصال كالمذهب[٢٥]

إن الشاعر ينصح نفسه بألا يندفع في الحب، لأن هذه العاطفة إن كانت تلائم الشباب، فهي لا تفيد الشيوخ، وهو قد جاوز حد الفتوة، وبلغ الخمسين من العمر، فأولى به أن يتجنب الصبابة، ولكن نفسه رغم النصح تنزع به نحو المحبوبة زينب.

ويصور لنا المحبوبة، فهي من الجميلات اللاتي يشبهن الغزلان، وزينب تتصف بصفات جسمية يرسمها الشاعر بالكلمات، فهي ممتلئة الأرداف، هضيمة الكشح، كأنها مهرة صغيرة لم تذلل، ويذكر لها تشبيها آخر، فهي مثل اللؤلؤة أول ما تستخرج من البحر، فطرية لم تمسها يد بسوء، ويبين لنا لونها، فهي بيضاء الوجه مشربة بحمرة في الضحى أو بداية النهار، وفي آخره كأنها من ذهب.

هذه صورة كأنها تمثال جميل يتفنن النحات في تقاطيعه حتى يأتي كما يتخيل، فالغزال شاعر مبدع، وتبدو العبارات في النص يسيرة لا تعقيد فيها، ولا توعر في ألفاظها، وإنما هي من السهل الممتنع كما كان يقول القدماء. روى ابن عبد ربه للغزال قصيدة جميلة في **عقده الفريد**، في الزمردة الثانية:

كتبت وشوق لا يفارق مهجتي ووجدي بكم مستحكم وتذكري
بقرطبة قلبي وجسمي ببلدة نأيت بها عن أهل ودي ومعشري
سقى الله من مزن السحائب ثرة دياركم التي حوت كل جؤذر
بحق الهوى أقر السلام على التي أهيم بها عشقا إلى يوم محشري
لئن غبت عنها فالهوى غيرغائب مقيما بقلب الهائم المتفطر
كأن لم أبت في ثوبها طول ليلة إلى أن بدا وجه الصباح المنور
وعانقت غصنا فيه رمان فضة وقبلت ثغرا ريقه ريق سكر
أأنسى ولا أنسى عناقك خاليا وضمي ونقلي نظم در وجوهر
فوا حزني أن فرق الدهر بيننا وكدر وصلا منك غير مكدر

٢٥- **الديوان**، ص ٣٩ - ٤٠.

لقد غررت نفسي بحبك ضلة ولو علمت عقبى الهوى لم تغرر
بكيت فما أغنى البكا عند صحبتي وشوقي إلى ريم من الإنس أحور
سلام سلام ألف ألف مكرر ويا حاملا عني الرسالة كرر
ألا يا نسيم الريح بلغ سلامنا وصف كل ما يلقى الغريب وخبر
وقل لشعاع الشمس بلغ تحيتي سميك واقراها على آل جعفر(٢٦)

هذه قصيدة في هيئة رسالة شعرية كتبها لحبيبته في قرطبة، فيا ترى هل كتبها عندما رحل إلى الشرق، أم كتبها عندما ذهب إلى الدانمارك أو القسطنطينية؟ لا ندري بالضبط، فالقدماء لم يذكروا مناسبتها، وابن عبد ربه لم يقدم لها بشيء، ويغلب على ظني أنه كتبها إليهم في رحلته الطويلة إلى العراق، لأنه غاب فيها عن بلده أكثر من غيابه في السفارتين السابقتين، وكما يبدو من القصيدة أن شعور الحنين مسيطر عليها، فعاطفته نحو حبيبته هي التي تغمر هذا النص.

والقضية المهمة في هذا النص هي صدق العاطفة فيه، فالقارئ يشعر بها وهو يقرأه، ويبدو أنه يخاطب زوجته التي عاش معها سعيدا زمنا طويلا، وإن كان لم يذكر اسمها، ولكن استدعاءه للذكريات البهيجة يوحي بذلك.

في مطلع القصيدة يوضح الشاعر أنه خط هذه الرسالة، وقلبه مفعم بالشوق إلى أهله ودياره في الأندلس، وخواطره تجول في صدره، وهو يعاني من الحزن لفراق الأهل والوطن.

ثم يبين الانقسام النفسي، ففي قرطبة روحه، وجسمه في بلد بعيد تغرب فيه، ومن هنا نجد الصراع العاطفي لدى الشاعر. ويحمله حبه لقومه بالدعاء لهم بالسقيا على عادة العرب القدامى، فهم يدعون لمن يحبون بالري، ويدعون على من يكرهونه بالقحط والجفاف، ويرى أن بلاد الأندلس قد اشتملت على الجمال كله، ولاسيما جمال النساء.

وينتقل الشاعر بعد هذه الأبيات الثلاثة التي تشبه مقدمة الرسالة إلى خطاب رجل متخيل، ويطلب منه أن يحمل سلامه، ويقرئه إلى حبيبته التي يهيم بها، ثم يأخذ في نعتها بطريقة جميلة:

بحق الهوى أقر السلام على التي أهيم بها عشقا إلى يوم محشري
لئن غبت عنها فالهوى غير غائب مقيم بقلب الهائم المتفطر

٢٦- أبو عمر أحمد بن عبد ربه، **العقد الفريد**، تحقيق: أحمد أمين وآخرين، طبعة الذخائر، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤م، ج ٥، ص ٣٥٣، **والديوان**، ص ٥٥.

إنه يؤكد أنه مخلص لهذه الحبيبة، محب لها إلى يوم القيامة، وهو إن بعد عنها بجسمه، فهي في قلبه حيث سار، وهواها مركوز في فؤاده، وينتظر الإياب إليها سريعا، لأنه هائم ولهان.

ويتذكر الشاعر في غربته تلك الأيام الجميلة التي قضاها مع زوجته، ويستعرض بعض ما كان بينهما، كأنه شريط سينيمائي يمر أمام عينيه فتزيده الذكرى شوقا وغراما:

كأن لم أبت في ثوبها طول ليلة	إلى أن بدا وجه الصباح المنور
وعانقت غصنا فيه رمان فضة	وقبلت ثغرا ريقه ريق سكر
أأنسى ولا أنسى عناقك خاليا	وضمي ونقلي نظم در وجوهر
فوا حزني أن فرق الدهر بيننا	وكدر وصلا منك غير مكدر
لقد غررت نفسي بحبك ضلة	ولم علمت عقبى الهوى لم تغرر
بكيت فما أغنى البكا عند صحبتي	وشوقي إلى ريم من الإنس أحور

في هذا الجزء من القصيدة تتوارد الذكريات على ذهن الشاعر، وتتقاطع الخواطر، فهو يذكر الليالي الجميلة التي قضاها مع زوجته، ويصور فمها الجميل، وأسنانها التي تشبه اللؤلؤ والجواهر النفيسة، وكل هذا قد مضى كأنه أحلام الكرى، ولذا يطرد عليه الحزن ويكثر، لأن الزمن فرق بينه وبينها، والزمان عدو الشعراء، فكلهم يشكون من فعله وتغيره عليهم، فهو الذي أبعد الشاعر عن حبيبته، وهو الذي قطع الصلة الحميمة التي تسبب فيها أي منهما. لقد هام بها وأحبها، وأثر ذلك في قلبه، ولو كان يعلم مرارة الفراق وألم الحب ما أحب، ولكن الأمور تجري بمقادير، وكلما حاول أن يستريح من الوجد بكى، بيد أن بكاءه لم يفده شيئًا لأن شوقه إلى امرأته الحسناء يزداد كل يوم، وهو يراها مثل الغزال الأبيض الجميل.

ويختم الرسالة الشعرية بإرسال رسالات كثيرة يعبر عنها بألف ألف، أي مليون، ثم يزيد، ويطلب من حامل الرسالة أن يزيد أيضًا ويكرر، فهي ملايين السلامات، وهذا تعبير عن حبه الشديد لتلك المرأة الطيبة ولولا أنها كانت حسنة العشرة ما أحبها ولا دام هواها، فإن الحب يزيد مع طيب المعاملة وحسن الحديث، وينقص بضد ذلك. ونلاحظ أن الشاعر قد كرر طلبه، ففي البيت الرابع أراد من صديقه أن يقرئ سلامه لحبيبته التي يهيم بها، وهنا في البيت الثاني عشر يريد منه أن يكرر لها سلامه ملايين المرات.

ولا يكتفي الشاعر بحامل الرسالة من البشر، وإنما يحملها أيضًا نسيم الريح، ويريده أن يبلغ سلامه لتلك الحبيبة، لأن النسيم أسرع من الإنسان، فهو يصل قبله، ويرجوه أن يصف لها ما يعانيه من ألم الفراق والغربة والحنين، ويضيف إلى النسيم شعاع الشمس، وهذا أسرع من الريح أو النسيم، ويرجو منه أن يبلغ

تحيته للجميلة التي تشبهه في اللون الذهبي البديع، ونستطيع أن نقول: إن اسمها شمس، وذلك استنباط من كلمة سميك، أو أن اسمها شعاع الشمس، وهو اسم مركب كبدر السماء.

هذه القصيدة البديعة متحدة الموضوع، مترابطة الأجزاء، فيها عاطفة صادقة، وتعبيراتها سمحة، لا معاظلة فيها، وهي متينة التركيب، فلا نجد فيها خطأ نحويا ولا صرفيا ولا موسيقيا، مما يدل على أنه فنان، وأما الصور البلاغية فيها فقريبة المأخذ، سهلة الإدراك، لا تنافر فيها ولا عوج.

ولما أرسل الأمير عبدالرحمن الأوسط يحيى بن حكم الغزال سفيرا لإمبراطور القسطنطينية، اجتمع معه ورأى زوجته تيودورا، أنس بها واستراحت لحديثه، لأنه كان لبقا مهذب الحديث واسع الثقافة، خفيف الظل، لطيف العشرة، في أحد الأيام جاءه ومعها ابنها الفتى، وهي تحمل زجاجة خمر ليشرب هو وابنها، ويتمتعا ويتحدثا كما يطيب لهما الحديث، وكان الطقس باردا، ولكن الشاعر أبى أن يشرب لأنه مسلم، فرضيت الملكة، وأخذت في الحديث معه دون شراب، وذكر الغزال هذا الموقف، وتغزل في الغلام وأمه غزلا عفيفا.

يقول الشاعر:

وأغيد لين الأعطاف رخص — كحيل الطرف ذي عنق طوي
ترى ماء الشباب بوجنتيه — يلوح كرونق السيف الصقيل
من أبناء الغطارف قيصري — العمومة حين ينسب والخؤول
كان أديمه نصف بنصف — من الذهب الدلاص أو الوذيل
وربما أكرر فيه طرفي — فأحسب أنه من عظم فيل
على قدر سواء لا قصير — فتحقره ولا هو بالطويل
ولكن بين ذلك في اعتدال — كغصن البان في قرب المسيل
يحن إلي مطرفا لشكلي — ويكثر لي الزيارة بالأصيل
أتى يوما إلي بزق خمر — شمول الريح كالمسك الفتيل
ليشربها معي ويبيت عندي — فيثبت بيننا ود الخليل
وجاءت أمه معه فكانا — كأم الخشف والرشأ الكحيل
توصيني به وتقول أخشى — عليه البرد في الليل الطويل
فقلت حماقة مني ونوكا — فديتك لست من أهل الشمول

فأية عزة سبحان ربي لو أني كنت من أهل العقول[٢٧]

لقد أورد ابن سعيد من هذه القصيدة تسعة أبيات عند ترجمته للشاعر، وقال عنه: "شاعر أديب حكيم، أرسله عبدالرحمن الأوسط إلى القسطنطينية رسولا، وحصل له أنس مع السلطان وزوجته، فجاءه ليلة بخمر، وقالت له: اشرب هذه مع ابني هذا، وكان غلاما بديع الجمال، فذكر أن ذلك لا يجوز في دينه، ثم ندم، وقال: وأغيد لين..." ورجع من عنده بذخائر ملوكية"[٢٨]. وكلام ابن سعيد هذا صحيح في تحديد رحلة يحيى بن حكم الغزال إلى القسطنطينية وقد علق المحقق الدكتور شوقي ضيف على هذا النص في الهامش قائلا: "والحقيقة أنه أرسل إلى النورمان الشماليين في بلاد الدانمارك، وقد فصل ابن دحية الحديث في هذه الرحلة"[٢٩]. قلت: إن كلام ابن سعيد صحيح، والوهم من المحقق، لأن الغزال سفر لعبدالرحمن الأوسط مرتين، مرة لبلاد الدانمارك، وهذه التي ذكرها صاحب **المطرب** عن المؤرخ الأندلسي تمام بن علقمة، وقد أنشد في ملكتها نود قصيدة سبق شرحها، ومرة ثانية سفر يحيى لعبدالرحمن في بلاد الروم، وهي التي أنشد فيها هذه القصيدة، وتغزل فيها بالملكة تيودورا. وكان ليفي بروفنسال يعتقد أنها رحلة واحدة إلى القسطنطينية، على النقيض من الدكتور شوقي ضيف، ولكن كليهما جانبه الصواب، والحق ما ذكرته بأنهما رحلتان مختلفتان.

يبدأ الشاعر بوصف جمال ابن الإمبراطور البيزنطي، فيذكر أنه شاب جميل ناعم، يبدو عليه أثر النعمة والترف، وأن عينه كحيلة كحلا طبيعيا، وأن عنقه طويل يزيده حسنا. ثم يصف وجهه، فهو صاف لامع مشرق، فيه حيوية الشباب ونضرته، كأنه سيف مجلو نظيف، ويبين أصله، فهو من أبناء العظماء القياصرة، سليل الأسرة المالكة من ناحية أبيه ومن ناحية أمه، فهو مؤهل من الجانبين وليس هجينا، ويرسم صورة لبشرة هذا الغلام، فجلده ناصع كأنه الذهب الخالص والفضة السبيكة النقية.

وأما أثره على الشاعر فكان كبيرا، إذ أخذ بجماله، وظل يكرر فيه نظره، ويتملى حسنه، وهو يظن أن جسده من العاج الرائع. ويحدد لنا طوله بطريقة شعرية لطيفة، فهو ربعة، لا طويل ولا قصير، مما يحملك على إجلاله، فهو معتدل القامة، وهو يشبه غصن البان قرب النهر، وهذه صورة واردة في الشعر العربي القديم كثيرا، ولكنه وضعها وضعا جيدا، فأثرت في القارئ.

٢٧- **الديوان**، ص ٦٨ -٦٩.

٢٨- ابن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط ٣، ١٩٨٠م، ص ٥٧ - ٥٨.

٢٩- المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٧، في الهامش.

ويوضح الشاعر أن هذا الفتى كان ينظر إليه وهو مسرور، لأن شكله في زيه مختلف وطريقة كلامه مختلفة، فهو طريف من هذا الجانب، ولذا كان يكثر الجلوس مع الشاعر، ويطيل الحديث معه، وهنا دليل على أن الشاعر كان يجيب على أسئلة هذا الفتى جوابا جذابا، فكان حديثا كالقرى، وذكر أن أغلب اللقاءات كانت تتم بعد العصر، وقت الأصيل.

ويحدثنا الشاعر أن الغلام جاءه يوما حاملا زجاجة خمر، يفوح شذاها كرائحة المسك الخالص، لكي يسقيه منها وتقوى الصلة بينهما، وعندما حضر كانت أمه معه، وهي تحب حديث الغزال، وتهوى مجالسته، وقد صورهما الشاعر بصورة الغزالة وابنها الغزال الصغير، وهي صورة كثيرة الدوران في شعر الحب. ومن حب الملكة لابنها أنها كانت توصي الشاعر به خيرا، وتخاف عليه من البرد، ويتضح من الحديث أن الرحلة كانت في الشتاء، والدولة البيزنطية باردة في الشتاء، خاصة العاصمة القسطنطينية.

فلما عرضت عليه الخمر ليدفئ جسده وينتعش أبى، وذكر أن هذا محرم في دينه الإسلام، ويدل ذلك على أن الشاعر كان متدينا، لم يشرب الخمر قط، كما سيرد عند وصف الخمر.

ويختم الأبيات بتسبيح الله، ويصف نفسه بالحمق والنوك، فهل كان فعلا أحمق؟ وهل حقا ما قاله ابن سعيد عند قول الشاعر:

فأية غرة سبحان ربي لو اني كنت من أهل العقول

قال ابن سعيد: "قالت (تيودورا) له اشرب هذه مع ابني هذا... فذكر أن ذلك لا يجوز في دينه، ثم ندم وقال القصيدة"(٣٠).

الحق أنه لم يندم إنما هو يمزح، وعلق الدكتور الداية على قول ابن سعيد بقوله: "إنما هو مقال شعري من الغزال، والدعابة غالبة على القصيدة(٣١) تلك القصيدة موحدة الموضوع، بناها الشاعر بطريقة قصصية جميلة، ولغتها سمحة، وصورها قريبة، وهي متينة التركيب، وحيوية التصوير، والقص والحوار فيها بادية واضحة.

ويقول الغزال في قصيدة وصف فيها رحلته إلى بلاد المجوس بلاد الدانمارك وكان المسلمون يسمونها بلاد المجوس، لأنهم كانوا وثنيين، وطقسهم بارد، لذا كانوا يوقدون نارا كثيرة، فظن الأندلسيون أنهم يعبدون النار مثل أهل فارس قبل أن يسلموا. وقد صار الدانماركيون مسيحيين بعد ذلك، ولكن إلى

٣٠- المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٨.

٣١- **الديوان**، ص ٦٩.

عهد الغزال كانوا على ديانتهم القديمة، يقول الشاعر:

وسليمى ذات زهد　　في زهيد من وصال
كلما قلت صليني　　حاسبتني بالخيال
والكرى قد منعته　　مقلتي أخرى الليالي
وهي أدرى فلماذا　　دافعتني بمحال
أتراني أقتضيها　　بعد شيئًا من نوال

للأسف لم يورد ابن دحية هذا الغزل كاملا، إنما اقتضب تلك الأبيات التي أعجب بها، ورآها غريبة عجيبة، لم يسبق إليها أحد من الشعراء، وقد وصف ابن دحية القصيدة كلها، وحكم لها بالانطباع، يقول: "وهذا القصيد يجول فيه رونق الانطباع، وهو القريب غير المستطاع، ورأيت له في الغزل من هذا القصيد معنى، انفرد في اختراعه، وأبدع ماشاء في إبداعه، وهو قوله: "وسليمى..." (٣٢).

إن الشاعر في هذه الأبيات يستخدم اسم سلمى مصغرا، وهو للتمليح، وهو يصفها بالعفة، وهي صفة نبيلة تزيد المرأة جمالا، ويبالغ الشاعر في تصوير هذه العفة، وذلك بأنها لم تنله شيئا في اليقظة، ولا في المنام، وعلى الرغم أنه يهواها ويخلص لها، فإنها تبخل عليه، ويذكر أنه لا ينام من شدة الهيام، وهي تدري هذه الحال، وكلما طلب منها الوصال رفضت وتعلقت بعلل واهية، ويختم الأبيات بسؤال استنكاري، هل هو يطلب منها مالا أو أقل القليل منه؟ والأبيات كما ترى سهلة مترابطة، تنساب عباراتها حاملة المعنى للمتلقي دون عسر، وهي من مجزوء الوافر، ورويها اللام المكسورة هذا الشعر المطبوع يذكرنا بشعر العباس بن الأحنف، وعلى منواله شعر البهاء زهير المصري. ويقول الشاعر:

أقر السلام على إلف كلفت به　　قد رمت صبرا وطول الشوق لم يرم
ظبي تباعد عن قربي وعن نظري　　فالنفس والهة من شدة الألم
كنا كروحين في جسم غذاؤهما　　ماء المحبة من هام ومنسجم
إلفين هذا بهذا مغرم كلف　　لا واحد في الهوى منا بمتهم
لله تلك الليالي والسرور بها　　كأنما أبصرتها العين في الحلم
ففرق الدهر شملا كان ملتئما　　وجمع شملا غير ملتئم
مازلت أرعى نجوم الليل طالعة　　أرجو السلو بها إذ غبت عن نجمي

٣٢- المطرب، ص ١٤٠.

نجم من الحسن ما يجري به فلك كأنه الدر والياقوت في النظم
ذاك الذي حاز حسنا لا نظير له كالبدر نورا علا في منزل النعم
وقد تناظر والبرجيس في شرف وقارن الزهرة البيضاء في توم
فذاك يشبهه في حسن صورته وذا يزيد بحظ الشعر والقلم
أشكو إلى الله ما ألقى لفرقته شكوى محب سقيم حافظ الذمم
لو كنت أشكو إلى صم الهضاب إذن تفطرت للذي أبديه من ألم
يا غادرا لم يزل بالغدر مرتديا أين الوفاء أبن لي غير محتشم
إن غاب جسمك عن عيني وعن نظري فما يغيب عن الأسرار والوهم
إني سأبكيك ما ناحت مطوقة تبكي أليفا على فرع من النشم[٣٣]

يبدو أن هذه القصيدة أنشدها الشاعر وهو بعيد عن وطنه، فهي قريبة المعنى من قصيدته التي مطلعها:

كتبت وشوق لا يفارق مهجتي ووجدي بكم متحكم وتذكري

وكان الشاعر قد رحل إلى المشرق، أو اضطر إلى الرحيل عن وطنه، إذ يروى أن الشاعر الغزال هجا زريابا المغني، وكان هذا المعني مقربا من الأمير عبدالرحمن الأوسط، فلما أكثر الشاعر من هجائه أمر الأمير بنفيه إلى المشرق، يقول المقري: "وكان الغزال أقذع في هجاء علي بن نافع المعروف بزرياب، فذكر ذلك لعبدالرحمن، فأمر بنفيه، فدخل العراق..."[٣٤]. هذه الرحلة المختارة، أو الإجبارية، طبقا لرواية المقري، أشعلت الحنين في قلب الشاعر، فتذكر زوجته أو حبيبته، وتذكر وطنه وأهله، فلم يجد إلا الشعر ينظمه، فيفرج به كربه، ويوسع به صدره ويرسله إلى أحبته في قرطبة، فهذه القصيدة تشبه الرسالة السابقة.

يبدأ الشاعر قصيدته بالتماس من صاحبه الحقيقي أو الخيالي، يلتمس منه إبلاغ سلامه إلى حبيبته التي تعلق بها، وهو في غربته أراد أن يصبر نفسه، ولكن الشوق المبرح لم يفارقه، بل زاد واشتعل واستخدم الغزال كلمة "إلف"، وهي كلمة بالغة الدلالةعلى المحبة والمودة وطول العشرة. وهو يصورها بصورة الريم، وقد بعدت عنه وبعد عنها، ولذلك يشعر بالوله، ويكاد يهلك من ضغط الحب وألم الفراق، ويشرح ما كان عليه هو وزوجته، ويستدعي الماضي الجميل، فقد كانا زوجين متحدين في جسد، تغذيه المودة،

٣٣- **العقد الفريد**، ج ٥، ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

٣٤- **النفح**، ج ٢، ص ٢٦٠.

وتنميه المحبة الغامرة. ويصور تبادل الحب بينهما، فهما إلفان متحابان، كل واحد منهما شديد الهوى للآخر، وصادقان في حبهما، لا ينقص أحدهما في حبه عن الآخر، ولا يتهم أحدهما أليفه. ويتعجب الشاعر من جمال تلك الليالي الماضية عندما كان مع حبيبته، لقد كانت أياما سعيدة، وليالي هنية، ثم يبدي حزنه لمرورها سريعا، كأنها حلم من أحلام الكرى، ويذكر أن الدهر هو الذي فرق بينهما، فأبعده عن حبيبته، وجمعه بناس لا يهواهم، ولا يهوونه، لذا فهو مهموم، لا ينام، كأنما يرعى النجوم، لكي يلهو ويتسلى بها، لأن حبيبته غابت عنه، وهي نجمه الحقيقي.

وينطلق الشاعر في وصفه وتغزله بتلك الحبيبة، فيجعلها نجما من الحسن لا يسير كما تسير النجوم السماوية، وإنما هو يمشي على الأرض، ويرسم له صورة أخرى، فهو مثل اللؤلؤ أو الياقوت في بيوت الأغنياء المنعمين. ويبالغ الشاعر في تصوير نجمه الجميل، أي زوجته الحبيبة، فيرفعها حتى تنافس المشترى والزهرة، هذان الكوكبان اللامعان الرفيعان، فهي رفيعة القدر، جميلة المحيا، ويزيد الشاعر في هذه الصورة البديعة، فالكوكب يشبهه في حسن صورته وشكله، وهو يزيد على الكوكب بمزية الشعر والكتابة، فهذه المحبوبة شاعرة كاتبة، والثقافة الواسعة كانت تزيد الحسناء حسنا وجمالا، فهي بجانب جمالها الجسمي وحسنها النفسي مثقفة، مبدعة، يطيب حديثها مع زوجها إذا تحدثت، وتشرح صدره إذا تكلمت، وتهدهده إن كان حزينا، وتسره وتشاركه إن كان فرحا.

ويبين الشاعر ما يلاقي من ألم الوجد والفراق، فهو يشكو إلى الله ما حل به، ويطلب منه العون على تحمله، وهو ينعت شكواه بأنها شكوى محب واله، مريض حافظ لعهد حبيبه، لم تشغله امرأة أخرى عنها، ويرى أن شكواه شديدة بالغة لو عرضت للحجارة الصلبة لتأثرت بها، لأن ما يظهره من الألم وما يبدو عليه من الحزن يفتت الصخر. وهو يتصور أن أليفه قد غدر به، وابتعد عنه، وهذا ضرب من خياله، لأنه مريض، فكأنه يتصور تلك الحالة، مع أنه وصف خليله قبل ذلك بأنه يساويه في المحبة والمودة، وليس بمتهم، ويطلب منه الوفاء، كأنه يريد أن يرحل إليه في غربته.

ويختم الشاعر قصيدته بختام جميل يوحي بإخلاصه، فإن كان المحبوب قد غاب عنه بجسده فلم يعد يراه بعينه، فهو في قلبه وخياله لا يفارقه، أي أنه دائم الذكر له، وهو سيظل يبكي من فراقه دائما، كما تنوح حمامة على هديلها فوق شجر النشم أو الزيزفون. هذه القصيدة نشعر فيها أيضًا بصدق عاطفة الشاعر، ونراها موحدة المعنى، كل جزء فيها مرتبط بالآخر، اللهم إلا قوله:

يا غادرا لم يزل بالغدر مرتديا　　أين الوفاء أبن لي غير محتشم

وهو في الظاهر يناقض وصف المحبوبة بالوفاء، وهو قد وضحه سابقا، لكن مع التأويل والتفسير يبدو ملتئما كما شرحنا.

ولغة النص ميسورة، وهذا ديدن الشاعر، لا يميل أبدا إلى الحوشي أو الغريب، ولا يعقد العبارات والجمل. هذه هي النصوص الغزلية التي وصلت إلينا من إبداع الغزال، وهي تدل على عمق حبه لزوجته، وتشير إلى استحسانه للجمال أينما كان، ويعبر عن عاطفته بسهولة ويسر، فيصل المعنى إلى قلوبنا عندما نسمع النص أو نقرأه، لا يعوقه عائق. وهو عف في تعبيره عن عشقه، لم يستخدم أية كلمة فاحشة، أو أي تعبير ماجن، باستثناء تلك القصيدة التي أنشأها ليناقس بها الشاعر العراقي أبا حكيمة، وذلك ليثبت مقدرته الشعرية، ويؤكد موهبته في هذا الفن.

٢- الوصف:

أول قطعة شعرية في غرض الوصف وردت في الديوان، وهي في الشيب، وكيفية إخفائه بالخضاب، والقطعة رواها **المطرب**، وقدم لها ابن دحية بحديث هو منقول بالقطع عن تمام بن علقمة المؤرخ يقول: "إنه (الغزال)، لما أنشد نود الشعر، وفسره لها الترجمان، ضحكت منه، وأمرته بالخضاب، ففعل ذلك الغزال، وغدا عليها يوما ثانيا وقد اختضب، فمدحت خضابه وحسنته عنده، ففي ذلك يقول..."[٣٥]. وأورد الأبيات وعددها خمسة، تلك هي مناسبة هذه القطعة، ومنها يبدو رأي الغزال في الشيب والخضاب. يقول الشاعر:

بكرت تحسن لي سواد خضابي فكأن ذاك أعادني لشبابي
ما الشيب عندي والخضاب لواصف إلا كشمس جللت بضباب
تخفى قليلا ثم يقشعها الصبا فيصير ما سترت به لذهاب
لا تنكري وضح المشيب فإنما هو زهرة الأفهام والألباب
فلدي ما تهوين من شأن الصبا وطلاوة الأخلاق والآداب

يذكر الشاعر أن الملكة نود قد حببت له الخضاب، وذكرت له محاسنه، ولكنه لم يقتنع بهذا التحسين، لأنه إن كان يغير اللون الأبيض، فهل يعيد له شبابه الذي ولى لا يمكن، فالشباب إذا ولى لا يعود، ويصور الشاعر الشيب والخضاب بشمس حجبها الغمام، فهي تستتر قليلا، وسرعان ما تأتي الرياح فتزيح السحاب، وتبدو الشمس واضحة. ثم يتجه إلى نود فينصحها بعدم إنكار بياض الرأس، لأنه

٣٥- المطرب، ص ١٤٦.

علامة على النضج العقلي، وإشارة إلى تجارب الزمن التي تحنك الإنسان، وتجعله خبيرا، وهو وإن كان وخطه الشيب فمازال قادرا على الحب، وعلاوة على ذلك لديه أخلاق كريمة، وثقافة واسعة، وموهبة شعرية وأدبية عالية، تسعد من يجالسه أو يخالطه.

القطعة في موضوع وصفي واحد، وقد تحدث الشعراء عن الشيب والشباب، ولكن هذا الشاعر يسمو بحديثه عن الشيب، ويراه جميلا، على النقيض من أكثر الشعراء العرب الذين اشتكوا من ضعف المشيب وتمنوا عودة الشباب كما قال الشاعر القديم:

ألا ليت الشباب يعود يوما لأخبره بما صنع المشيب

وتصوير الغزال للمشيب بالشمس، وللخضاب بالسحاب الذي يغطي الشمس، ثم يأتي الهواء فيزيل السحب، وتظهر الشمس تصوير رائع حي. وهو مقنع بعدم ضرورة الخضاب لمن شاب. وكذلك تشبيهه للشعر الأبيض بزهرة الأفهام صورة جميلة ثبتت المعنى في القلب مباشرة بطريقة محسوسة.

أورد ابن الكتاني في كتابه **التشبيهات**، قطعة شعرية للغزال في باب البحر والسفن، وعنه نقلها جامع شعره وهي:

ولبس كثوب القس جبت سواده على ظهر غربيب القميص نآد
قد استأخرت أردافه ومضت له غوارب في آذيه وهواد
له ظلمات بعضها فوق بعضها دآدي موصول بهن دآدي
يبيت بها الملاح من حذر الردى ملازم صاريه لزوم قراد(٣٦)

والبيت الأول يبدأ بكلمة "لبس" وقد فسرها **جامع الديوان** بأنها اختلاط الظلام، ولكن في نفسي شيء، وأظن، الكلمة محرفة، وأنها "وليل"، فهو يصف البحر والليل على أية حال، فالشاعر يحكي أنه قطع سواد الليل الداكن الذي يشبه ثوب القسيس في اللون في سفينة سوداء اللون، تجري على ماء بحر متلاطم الأمواج، بعضها يضرب بعض، وكلها ظلمات، ظلمات الليل، وظلمات البحر، وأهوال مخيفة، تجعل الملاح وهو خبير بالإبحار خائفا من الهلاك كذلك يمسك صاري السفينة ولا يفارقه، ولا يفارقه، كأنه قراد لاصق بالدواب.

والقطعة معتمدة على التصوير الجميل، فهو يشبه سواد الليل في ظلامه بسواد ملابس القس،

٣٦- **الديوان**، ص ٤٦.

وكذلك في اشتماله عليه، وجسد لنا البحر في صورة حيوان أسود اللون، له أرداف ضخمة فظيعة، وله ظهر وأعناق، وهي صورة تذكرنا بليل امرئ القيس. ثم يرسم لنا صورة لظلمات البحر، فهي ليست مفردة إنما هي مركبة، تشعر الخوف في النفوس جميعا حتى ذلك الملاح الخبير، يظل مرعوبا من أمواجه وظلماته الحالكة، وقد اعتمد في هذه الصورة على القرآن الكريم: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍۚ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾(٣٧) وصورة الملاح المرتعد الملازم لصاريه صورة حية جميلة، تضع هذا المسكين أمام أعيننا كأننا نراه. إن الغزال شاعر فنان، يرسم الصور الموحية السريعة. وأنشد الغزال قطعة يصف فيها حاله يقول:

أصبحت والله محسودا على أمد	من الحياة قصير غير ممتد
حتى بقيت بحمد الله في خلق	كأنني بينهم من خشية وحدي
وما أفارق يوما من أفارقه	إلا حسبت فراقي آخر العهدي
انظر إلي إذا أدرجت في كفني	وانظر إلي إذا أدرجت في اللحد
واقعد قليلا وعاين من يقيم معي	ممن يشيع نعشي من ذوي ودي
هيهات كلهم في شأنه لعب	يرمي التراب ويحثوه على خدي(٣٨)

يشعر الشاعر بأنه محسود لأن عمره طال، فهو قد عاش ما يقارب المائة أو يزيد عليها قليلا، طبقا لما ورد في شعره، وهو ينظر إلى المعاصرين له في بلده من الأجيال الجديدة، وهم ينظرون إليه في تعجب، لقد طال عمره وفني أترابه، لذلك يحس الشاعر بالخوف بينهم، كأنه يعيش وحده في صحراء مخيفة، وهو ينتظر النهاية دائما، ويتخيل ساعة موته، ويرشد المتلقى إلى النظر في أمره عندما يفنى، ويوضع في كفنه، ويلحد في قبره، وكأنه يعظه بشأنه، كما يوصيه بأن يقيم على قبره قليلا، ليرى من يستقر عند قبره من أهله وأحبابه وأصدقائه، بالطبع لن يبقى أحد منهم عند القبر بعد الدفن، فكلهم بعد أن يحثوا عليه التراب سيرجعون إلى بيوتهم، ويستغرقون في أعمالهم وأولادهم.

هذه صورة ذهنية متخيلة، ولكنها مؤثرة جدا، فكل بني آدم يصير عليهم ما صار عليه، ومن هنا تأتي المشاركة العاطفية. وفي قصيدة أخرى من الرجز يقول:

٣٧- سورة النور، الآية: ٤٠.

٣٨- **الديوان**، ص ٤٦.

تسألني عن حالتي أم عمر وهي ترى ما حل بي من الغير
وما الذي تسأل عنه من خبر وقد كفاها الكشف عن ذاك النظر
وما تكون حالتي مع الكبر أربد مني الوجه وابيض الشعر
وصار رأسي شهرة من الشهر ويبست نضرة وجهي واقشعر
ونقص السمع بنقصان البصر وصرت لا أنهض إلا بعد شر
لو ضامني من ضامني لم انتصر فانظر إلي واعتبر ثم اعتب فإن

للحليم في معتبر(٣٩)

أم عمر تسال الشاعر عن حالته، فمن أم عمر هذه؟ هل هي زوجته؟ أو هل هي جارته؟ أو هل هي امرأة تخيلها الشاعر، وتوهم سؤالها عن حالته كل ذلك ممكن في الشعر، لأنه فن يعتمد على الحياة والخيال معا.

تسأل المرأة الغزال عن أحواله، فيجيبها بأنها ترى ما حل به عبر الزمان، فلا داعي للسؤال، لأنها ترى ببصرها، ورؤية العين أدق من الأخبار، ولم يقف الشاعر عند هذا الحد، وإنما وقف يوضح ما نزل به من الكوارث، أولها شيخوخته، فقد بلغ من الكبر عتيا، وقد تغير لون وجهه، فبعد أن كان أبيض مشربا بحمرة، ناصعا جميلا، أربد وتجعد وتخدد، وصار رأسه كالقطن المندوف، وأما سمعه فقد ضعف، وكذلك بصره، وأما قواه فقد وهنت، حتى إنه لو اعتدى عليه معتد ما استطاع أن يدافع عن نفسه كما كان يفعل وهو في صحته. ثم يرشد المتلقي إلى الاتعاظ بحاله، والاعتبار بها، فلا يغتر القوي بقوته، ولا الشاب بشبابه، ولا الغني بماله، لأن كل شيء في هذه الدنيا إلى زوال، والعاقل من يتعظ بغيره.

هذه صورة للشيخوخة رسمها الشاعر بكلماته، واستمدها من حياته الخاصة، وإن كان فيها حزن ورثاء لنفسه، فإنها وصف مؤثر، يفتح قلوبنا ويثير مشاعرنا، فنسلك الطريق القويم. ويقول الغزال في وصف أهل الرزق الحلال:

طالب الرزق الحلال لا يقر نهاره وليله على سفر
في الحر والبرد وأوقات المطر وماله في ذاك نذر محتقر
إن الحلال وحده لا يختمر أين ترى مالا حلالا قد ثمر

ما إن رأينا صافيا منه كثر(٤٠)

٣٩- **الديوان**، ص ٤٧ - ٤٨.

٤٠- **الديوان**، ص ٤٨.

في هذه القطعة يعرض الشاعر فكرته عن أصحاب المال الحلال الذين يتحرونه في مكاسبهم، ويرسم لهم صورا جميلة مؤثرة، فهم يشتغلون ليلا ونهارا، ويكدون في الحر والبرد، والمطر والوحل، ومع ذلك فهو محدود لا يزداد كثيرا، وهو يرى أن هذا المال الحلال لا ينمو إلا قليلا، وكأن الشاعر يغمز أصحاب الأموال العديدة في بلده، ويعتقد أن مالهم مختلط حلاله بحرامه، ونحن نعلم أن الشاعر كان شديد النقض للأغنياء، وخاصة الذين يفتخرون، ويلهيهم التكاثر، حتى إنهم يفتخرون في بناء مقابرهم مع أنها لا تفيد شيئا، وإنما المفيد الكسب الحلال والعمل الصالح.

ونلحظ أن القطعة ترتكز في أسلوبها على استقصاء المعني، وتتبع جزئياته حتى تستوفيه، مثل قوله:

طالب الرزق الحلال لا يقر نهاره وليله علـى سفـــر

وفي الحر والبرد وأوقات المطر

فهو يستقصي المعنى هنا، ويرسم صورة حركية دءوبا لطلب الحلال، وصور القطعة الجزئية قريبة المأخذ، يصل محمولها إلى القلب والعقل سريعا. ويقول الشاعر في وصف الفقر:

إني حلبت الدهر أصناف الدرر

فمرة حلوا وأحيانا مقر وعلقما حينا وحينا صبر

وجل ما يسقيكه الدهر كدر فلم أجد شيئا من الفقر أمر

ألا ترى أكثر من فيها يفر مخافة الفقر إلى نار سفر(٤١)

إن الشاعر يعرض لنا تجربته عبر حياته المديدة، فيحكي أنه جرب الأحداث، وعرك الأيام والليالي، فكانت تحلو له الحياة حينا، وأحيانا كثيرة تصير مريرة، والمرارة أشد من الحلاوة، وزمنها أطول، ويخلص من تلك التجارب إلى تقرير حقيقة هي أن الحياة مرة، وأمر شيء فيها الفقر، ويدلل على صحة رأيه بما في الدنيا، فإننا نجد كثيرا من الناس يخشون الفقر، فتحملهم مخاوفهم على الطمع في المال الحرام، فيرتشون أو يحتكرون أو يسرقون أو يخونون وطنهم، كل ذلك من أجل الفلوس، فيفرون من الفقر إلى ما هو أشد منه، وهو عذاب النار، لأن أهل الحرام وقود السعير.

وتبدو ظاهرة التشاؤم في هذا النص وفي الذي قبله، وكأنه كان سلفا لأبي العلاء المعري، أكبر الشعراء المتشائمين. ونلحظ في هذه القطعة استقصاء المعنى كسالفتها، واستعمال المترادفات والمتقابلات

٤١- **الديوان**، ص ٩.

لتوكيد القصد، مثل قوله: "حلو، مقر، علقم، صبر" والصبر.هو المر، والعلقم شجر مر. والصور قريبة مثل "حلبت الدهر أصناف الدرر" كناية عن كثرة التجارب والخبرة بالحياة والناس. و "جل ما يسقيه الدهر كدر" استعارة تشخيصية جميلة، وقد نوع في العبارات ما بين الخبر والإنشاء لإثبات رأيه، فقوله: "ألا ترى أكثر من فيها يفر مخافة الفقر إلى نار سقر؟" فالاستفهام يقصد به التقرير.

ولهذا الشاعر قطعة وصفية هي التي ذكرها من ترجموا له، في وصف الأهوال التي واجهها في رحلته إلى بلاد الدانمارك، وقد سار في السفينة عبر بحر المانش، وبصحبته يحيى بن حبيب، ويا ليت المؤرخين أتوا بقصيدته كاملة. إذ يظهر أنها كانت طويلة، وهم الذين اقتطعوا منها هذه القطعة، بالإضافة إلى بعض أبيات في الغزل قدم بها إلى هذا الوصف، يقول الشاعر:

قال لي يحيى وصرنا بين موج كالجبال وتولتنا عصوف من جنوب وشمال
شقت القلعين وانبتت عرى تلك الجبال وتمطى ملك الموت إلينا عن حيال
فرأينا الموت رأي العين حالا بعد حال لم يكن للقوم فينا يا رفيقي رأس مال(٤٢)

هكذا يصور الشاعر هياج البحر وهم في السفينة قاصدين ملك الدانمارك، إذ هبت العواصف عليهم من الجنوب والشمال والشرق والغرب، واضطربت الفلك وكاد يحتويها الماء، فقد انقطع الشراع وانشق القلع، وتمزقت الحبال، وأوشك القوم على الغرق، وقد بلغت المخاوف منهم مبلغها، حتى كانوا يرون الموت وملائكته عيانا، في هيئة مخيفة، ولو أنهم غرقوا ما درى بهم أحد، ولكن الله نجاهم، إن القطعة تعتمد على التصوير الحي، فالحركة ظاهرة فيها، والإضطراب النفسي واضح، والكناية التي استعملها حملت المعنى إلى النفس، وينهيها الشاعر بسخرية لطيفة، على طريقته في استخراج السخرية من المواقف الحرجة. هذا الوصف الرائع لو وصلت إلينا القصيدة كاملة لوجدنا قصة تامة مؤثرة، وممتعة رغم شدتها.

٣- الفخر:

في المجموع الشعري لا نجد فخرا كثيرا، وإنما وردت قطعة من ستة أبيات، وقصيدة من تسعة عشر بيتا، منها ثلاثة عشر في الفخر، والباقي نصائح زهدية، ولعل ديوانه لو وصل إلينا كاملا لوجدنا فيه فخرا كثيرا، لأن الديوان كان ضخما كما سبق القول. يقول الشاعر:

أنا شاعر أهوى التخلي دونما زوج لكيما تخلص الأفكار
لو كنت ذا زوج لكنت منغصا في كل حين رزقها أمتار

٤٢- **جذوة المقتبس**، ص ٣٧٥، وأحمد بن يحيى الضبي، **بغية الملتمس**، دار الكاتب العربي، مصر، ١٩٦٧م، ص ٥٠٠.

كم قائل قد ضاع شرخ شبابه ما ضيعته بطالة وعقار
إذ لم أزل في العلم أجهد دائما حتى تأتت هذه الأفكار
مهما أرم من دون زوج لم أكن كلا ورزقي دائما مدرار
وإذا خرجت لنزهة هنيتها لا ضيعة ضاعت ولا تذكار(٤٣)

يعبر الشاعر عن إيثاره للعزوبة، لأنه شاعر يحب الحرية، ويريد أن يخلو لنفسه ليفكر ويعبر تعبيرا جميلا، والزوجة تشغله إن تزوج، ولو كان تزوج لنغصت الزوجة عليه حياته بكثرة حاجاتها ومطالبها، فلا شك أنه كان سيشقى في سبيل الحصول على ما تريد، وفي ذلك ضياع للجهد والوقت الذي يريد أن يكون خالصا للإبداع الشعري.

وهناك كثير من اللائمين يلومونه على موقفه هذا، ويدعون أنه ضيع عمره هباء، إذ لم يتزوج، غير أن الشاعر يرد عليهم بأن عمره لم يضع، لأنه استثمره في تحصيل العلم والأدب، ولم ينفقه في الخمر والزمر، واللعب واللهو، والدليل على ذلك هذا الشعر الجميل الذي يحتوي على أفكار قيمة، وصور بديعة، وموسيقا جذابة.

ومع أنه عزب لم يثقل على أحد، فكان يخدم نفسه ويرعى شأنه، وكان رزقه يأتيه رغدا لم يحتج إلى أحد، وإذا أراد راحة نفسه وترويح باله خرج في متنزهات قرطبة الجميلة، فاستراح وهنئ بها، لم تنغص نزهته زوجة مزعجة، ولم يضع منه شيء كثير ولا قليل. أهم شيء في هذه الأبيات فخره بتحصيل العلم، وفخره باستقامة طريقته في الحياة، فهو مستقيم، يعرف طريقه الصحيح، وقد عبر عن ذلك بصورة جميلة. غير أني أعتقد أنه تزوج بعد ذلك، لأنه قرض شعرا جميلا رأيناه في رسالته الشعرية التي بعث بها من المشرق إلى حبيبته في قرطبة. ولقوله في قصيدة أخرى:

كفاني من كل الذي أعجبوا به قليلة ماء تستقى لي من النهر
ففيها شرابي إن عطشت وكل ما يريد عيالي للعجين وللقدر(٤٤)

فهو يذكر هنا زوجته وعياله، والمواقف تتغير. والزواج على أية حال خير من عدمه، وهو أصل من أصول الحياة، وسنة من سنن الدين الإسلامي، وفي التاريخ الإسلامي نجد ناس فضلوا عدم الزواج، ولكن هذا مخالف للأصل إذا لم يكن عن ضرورة. ويقول الغزال مفتخرا:

٤٣- **الديوان**، ص ٥٦-٥٧.

٤٤- **الديوان**، ص ٥٧ - ٥٨ والنص في **العقد الفريد**، ج ٥، ص ٣٥٢.

لعمرى ما ملكت مقودي الصبا فأمطو للذات في السهل والوعر
ولا أنا ممن يؤثر اللهو قلبه فأمسي في سكر وأصبح في سكر
ولا قارع باب اليهودي موهنا وقد هجع النوام من شهوة الخمر
وأوتغه الشيطان حتى أصاره من الغي في بحر أضل من البحر
أغذ السرى فيها إذا الشرب أنكروا ورهني عند العلج ثوبي من الفجر
كأني لم أسمع كتاب محمد وما جاء في التنزيل فيه من الزجر
كفاني من كل الذي أعجبوا به قليلة ماء تستقي لي من النهر
ففيها شرابي إن عطشت وكل ما يريد عيالي للعجين وللقدر
بخبز وبقل ليس لحما وإنني عليه كثير الحمد لله والشكر
فيا صاحب اللحمان والخمر هل ترى بوجهي إذا عاينت وجهي من ضر
وبالله لو عمرت تسعين حجة إلى مثلها ما اشتقت فيها إلى خمر
ولا طربت نفسي إلى مزهر ولا تحنن قلبي نحو عود ولا زمر
وقد حدثوني أن فيها مرارة وما حاجة الإنسان في الشرب للمر(٤٥)

يفخر الشاعر في هذه الأبيات باستقامته، فهو لم يعبث كما يعبث بعض الشباب، ولم يذهب إلى بيوت المتعة، ولا يحب الخمر واللهو، ولا يسعى إلى حانات الخمر التي يديرها اليهود والنصارى في الأندلس كما يسعى غيره من أولئك الذين أضلهم إبليس، وزين لهم الحرام، حتى سقطوا في بحر الكبائر، وهؤلاء يسرفون في غيهم حتى إنهم ليرهنون ملابسهم عند الخمار، إذا لم يقدروا على دفع ثمن ما شربوا. إن القرآن الكريم قد حرم شرب الخمر، وأولئك الذين يحتسونها كأنهم لم يقرأوا القرآن، ولم يسمعوا ما فيه من التحريم، إن الشاعر يسمع كتاب الله قولا وعملا وهو ملتزم بما فيه من الأوامر والنواهي التزام المسلم الطيب ويذكر الشاعر أنه زاهد في كل ما يعجب به المنحرفون، فهو يكتفي بقلة ماء صغيرة تملأ له من نهر قرطبة، نهر الوادي الكبير، إنه يشرب منها ويسقي عياله، ويعجن منها عجينه، ويطبخ منها في قدره، وهو يعيش على القليل عيشة الزهاد، فهو يأكل الخبز والبقول، كالفول والعدس واللوبيا، وليس لحما، فهو غني بقناعته، وهو يحمد الله ويشكره على هذه النعم الكثيرة.

٤٥- **العقد الفريد**، ج ٥، ص ٣٥٢، **الديوان**، ص ٥٧ - ٥٨.

ويخاطب الأغنياء الذين ينهمكون في تناول اللحوم ليلا نهار، حتى أدمنوها، فيقول لهم سائلا: هل عدم أكل اللحم أثر في وجهي؟ والجواب طبعا بالنفي، فقد كان الشاعر جميلا لاسيما في شبابه وشيخوخته. ويقسم أنه لو عاش مائة وثمانين سنة ما رغب في الخمر، ولا هفت نفسه إليها، ولا مالت إلى الموسيقا والرقص، وهو يقصد الموسيقا بصفة عامة. وقد سمع الشاعر من شاربي الخمر أنها مرة، ومادامت مرة لماذا يشربها العاقل؟ ما حاجة الإنسان إلى المر؟ والسؤال هنا للنفي. ومن هذا البيت نتأكد أنه عندما عرض وصف الخمر كان يعرضها شعرا، أي قولا لا عملا، فهو لم يشربها، إنما عارض بها أبا نواس، كما سيأتي عند الحديث عن هذا الموضوع، ليثبت أنه قادر على التعبير عن هذا الغرض مثل الشاعر العراقي.

إن النص يسير في سهولة ووضوح، لأن الشاعر يريد التعبير عن موقفه، وتوصيل فكرته للقارئ والسامع من أسهل الطرق وأقربها، والصورة فيه قريبة لا تعقيد فيها، ولا تنافر بينها، وفخر الشاعر فخر حقيقي. وقد كتب المؤرخون أنه لم يشرب الخمر مع أنها كانت كثيرة في الأندلس، لكثرة أهل الكتاب، وكثرة مزارع العنب في تلك البلاد الغنية، فهو من الشعراء المستقيمين.

٤- المدح والاعتذار:

ليس فيما بين أيدينا من شعر الغزال قصائد مدحية كثيرة، وهذا ضد الثابت، فالرجل كان ذا صلة حسنة بالأمراء في الأندلس، صحيح أنه لم يكن يسرف ولكن كان يمدحهم بالتأكيد، وقد أشار ابن حيان إلى مدحه لهم، وإن لم يأت إلا بقطعة صغيرة من هذه المدائح.

إن القصيدة التي رواها صاحب **المطرب** للغزال في مدح الأمير محمد ابن عبدالرحمن عدتها ستة عشر بيتا، ولا شك أنها كانت أطول من ذلك، لأن ابن دحية يقول إنه قد اختصر التشبيب منها، وربما ترك شيئا من أبيات المدح، واكتفى بما اختاره منها، فسجله في كتابه، وهذه هي الأبيات المدحية التي ذكرها:

من مبلغ عني إمام الهدى ... الوارث المجد أبا عن أب
أني إذا أطنب مداحه ... قصدت في القول فلم أطنب
لا فك عني الله إن لم تكن ... أذكرتنا من عمر الطيب
وأصبح المشرق من شوقه ... إليك قد حن إلى المغرب
منبره يهتف من وجده ... إليك بالسهل وبالمرحب
أطربه الوقت الذي قد دنا ... وكان من قبلك لم يطرب
هفا به الوجد فلو منبر ... طار لوافى خطفه الكوكب

إلى جميل الوجه ذي هيبة ليست لحامي الغابة المغضب
لا يمكن الناظر من رؤية إلا التماح الخائف المذنب
إن ترد المال فإني امرؤ لم أجمع المال ولم أكسب
إذا أخذت الحق مني فلا تلتمس الربح ولا ترغب
قد أحسن الله إلينا معا إن كان رأس المال لم يذهب(٤٦)

إن ابن دحية قد أشار إلى سبب قرض هذه القصيدة، وهو أن الشاعر كان طلب من الأمير عبدالرحمن الأوسط وظيفة، ومدحه بقصيدة توسل بها إليه، لم يذكرها أحد من المؤرخين، فعينه عبدالرحمن خازنا للأعشار، وحافظا لها في الأهراء، ولكنه تصرف فيها بالبيع، وذلك كما سبق القول، وقد آخذه عبدالرحمن على فعله هذا، وأمر بسجنه، فأنشد هذه القصيدة يمدحه، ويعتذر إليه فيها.

والقيم الأخلاقية التي مدح بها الشاعر الأمير هي أنه إمام الهدى، أي أنه مستقيم في نفسه، قدوة حسنة لغيره، وهي صفة دينية يحبها المسلمون، ويقدرون من يتصف بها لاسيما إن كان أميرا أو خليفة أو ملكا أو رئيسا. ثم يصف الشاعر بأنه من أصل كريم، وأن أباه كان من العظماء، فهو وارث العظمة والعزة، وطريقة الشاعر في المدح هي القصد، وعدم الغلو كما يغلو الشعراء، ولذلك فإن كلامه موجز دقيق، وهو يشبه عبدالرحمن الأوسط بالخليفة عمر بن الخطاب في عدله واستقامته، ويحتمل أن يشبهه بعمر بن عبدالعزيز، وهو من أجداد الأمير، وكان صالحا عادلا مثل جده ابن الخطاب، ولهذا العدل فإن أهل الشرق يرغبون في الدخول تحت حكم عبدالرحمن، أي أن عبدالرحمن أعدل من بني العباس، فهو أولى بالخلافة، وكل شيء يحب الأمير حتى المنبر، وهو جماد يرحب بعبدالرحمن ويسعد به، ويبالغ الشاعر في تشخيص المنبر، فهو يطرب ويهتف ويهفو، فلو أن منبرا يطير في العالم لطار هذا المنبر إلى الأمير الممدوح أسرع من الكوكب. ثم يمدحه بالجمال وهو صفة جسمية، والناس يستبشرون بحسن المحيا، ويضيف إلى الجمال صلة نفسية هي الهيئة، فكل من يراه يهابه ويخشاه كأنه أسد هصور، أو هو أشد طبقا لقول الشاعر. ومن دلائل الهيبة أن الناس لا ينظرون إليه إلا نظرة سريعة، كنظرة الخائف المذنب الذي يخشى وقوع العقوبة به.

ويخبر الشاعر الأمير أنه لم يجمع المال، ولم يكسب من بيع الغلال المخزونة، فإن كان يريد الحق فليأخذه ولا يطلب منه المزيد من الربح، فإن الله قد أكرمهما معا بأن رأس المال مازال موجودا. وهذا اعتذار لطيف، وفيه دعابة كانت من خصائص هذا الشاعر، وكان من نتيجة هذا المدح عفو الأمير عنه وأخذ رأس المال.

٤٦- **المطرب**، ص ١٣٤-١٣٥، **الديوان**، ص ٤٠-٤١.

وقد روى ابن دحية الجزء الأخير بكسر الهمزة "إن كان رأس المال لم يذهب" وهذه رواية جيدة، ورواها جامع الديوان بفتح الهمزة، وهي رواية أجود. وهذه القصيدة متينة سهلة التعبير، جيدة التصوير. وأورد جامع الديوان بيتين للشاعر في مدح الحكم بن هشام الملقب بالربضي، وهما قوله:

كان الملوك الغلب عندك خضعا　　خواضع طير تتقي الصقر لبد
تقلب فيهم مقلة حكمية　　فتخفض أقواما وقوما تسود(٤٧)

إن الشاعر يصور الحكم بطلا عظيما أعظم من كل الملوك، وأنهم عندما يأتون إليه يخضعون له كأنهم طيور صغيرة أمام صقر ضخم، وأن الأمير الحكم يتصرف في شئونهم، فيرفع بعضهم، ويخفض بعضهم، وليت القصيدة وردت كاملة. إن الصورة التي رسمها الشاعر للحكم صورة توحي بالهيبة، وهي صفة مهمة يستخدمها الشاعر في مدح الحكم، كما يستعملها في مدح الأمير عبدالرحمن.

حكى ابن حيان أن يحيى الغزال قد مدح الأمير محمد بن عبدالرحمن، وروى له بيتين نقلهما من كتاب عبادة بن ماء السماء، صاحب كتاب **أخبار الشعراء**، والبيتان هما:

إن سمـي النبي فضلـه الله　　على كل من مضى وبقي
مد له الملك ساعدين لدن　　أقبل للحب ممد معتنق(٤٨)

والمعنى الذي قصده الشاعر أن الأمير محمد بن عبدالرحمن، كرمه ربه على كثير من الناس، ولكنه يبالغ فيجعله مفضلا على كل من سلف ومن بقي، وربما قصد الأمراء، وقد جعل الدولة نفسها ترحب بالأمير، وهي عاشقة له، وهذا مثل قول الشاعر الآخر:

أتته الخلافة منقادة　　إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له　　ولم يك يصلح إلا لها

٤- الهجاء:

كان الشاعر يحيى الغزال رجلا مستقيما، ولذلك لم يكن يعجبه أي منحرف، فكان يسلط لسانه عليه، وكذلك كان يكره الجهل، وإذا رأى قاضيا جاهلا هجاه، وإذا وجد فقيها أحمق أو يأكل من حرام حمل عليه لم يكن يخشى أحدا من الناس، فقد هجا نصر الخصي، وكان مقربا من الأمير عبدالرحمن الأوسط، لأنه رآه جبارا متغطرسا، جماعا للسحت. إن الغزال هجا القاضي يخامر، وكان للقضاة في

٤٧- **الديوان**، ص ٤٥.
٤٨- المرجع السابق، ص ٦٤.

الأندلس مكانة كبيرة، وهيبة شديدة، ولكن الغزال لم يكن يهاب أحدا. فمن يخامر هذا؟ قال أبوعبدالله محمد بن حارث الخشني في ترجمته لهذا القاضي: "هو يخامر بن عثمان بن حسان بن يخامر بن عبيد بن أفنان بن وداعة بن عمرو، ولي القضاء سنة عشرين ومئتين، وهو أخو معاذ بن عثمان، ومعاذ هذا هو والد سعد بن معاذ الفقيه، وكانا من أهل جيان، من قلعة الأشعث...". هذا القاضي من جيان، والغزال أصوله من جيان، لكن لماذا تسلط عليه الغزال؟ لقد هجاه الشاعر لأنه كان جاهلا أحمق فيه اندفاع وعنف، كل هذه الصفات نفرت الناس منه، ولذلك قال الخشني: "ولى يخامر القضاء فعامل الناس بخلق صعب، ومذهب وعر، وصلابة جاوزت المقدار، فلم تحتمل العامة له ذلك فسلطت عليه الألسن، وكثرت فيه المقالة، وانبرى له رجل من شعراء قرطبة في ذلك الزمان، وهو المعروف بالغزال، فكان يهجوه، ويصفه بالبله والجهل، ومن بعض ما ذكره فيه قوله:

فسبحان من أعطاك بطشا وقوة وسبحان من ولى القضاء يخامرا(٤٩)

وهذا هجاء شديد، وإن لم يبد في اللفظ سب واضح، فهو من هجاء الأشراف كما كان القدماء من النقاد يقولون، كانوا يقولون: إن الهجاء نوعان: هجاء الأشراف، وهو الذي تنشده العذراء فلا تستحي وهجاء السوقة، وهو سباب واضح، وفحش ظاهر.

ويقول مؤرخ الأندلس ابن حيان: "ولى الأمير عبدالرحمن يخامر هذا قضاء الجماعة بقرطبة، ولم يكن أهلا له ولا راجح الوزن، ولا حاضر اليقين، ولا واسع البصيرة فيه..."(٥٠). وذكر ابن حيان قطعة من قصيدة للغزال هجا فيها يخامر هذا، هي:

فقلت له كلفتني غير صنعتي كما قلدوا فصل القضاء يخامرا
فأصبح قد حارت به طرق الهوى يكابد لجيا من البحر زاخرا
فقلت لو استعفيت منها فقال لي سأفضح ما قد كان ذاك مغايرا
فقلت له رأس الفضوح إقامة علينا كذا من غير علم مكابرا
وخبطك في دين الإله على عمى خباطة سكران تكلم سادرا
فلن تحمل الصخر الذباب ولن ترى(م) السلاحف يزجين السفين المواخرا(٥١)

٤٩- **قضاة قرطبة**، ص ٥٤.
٥٠- **المقتبس**، ص ٢٠٠.
٥١- المرجع السابق، ص ٢٠٠-٢٠١.

نلحظ هنا أن الشاعر يهجو يخامر بصفات هي الجهل واتباع الهوى، والمكابرة في غير الحق، وخشيته من الناس، وعدم خشيته من الله، وأنه يخبط خبط عشواء لا يعرف للعدل طريقا. والتشبيه في البيت الأول فيه غمز واضح ليخامر، فهو قد وضع في غير موضعه، ولذا حارت به طرق الهوى، وهو صورة دقيقة مليئة بالحيوية والحركة، وتعبر عن التيه والضلال، والحوار الوارد في النص رائع، يظهر لنا القاضي خائفا من الفضيحة ؛ حتى لا يقال: إنه استقال لجهله، والأولى أن يخاف الله، ولا يخاف من الناس، فالإنسان العاقل لا يتولى القضاء إلا إذا كان أهلا له، والصورة الأخيرة جميلة رائعة، فهي تصور يخامر مرتبكا في أحكامه، يحكم بها على المتخاصمين، وهو في حيرته مثل السكران الذي يهذي، فلا يعرف ما يقول. وذكر ابن حيان قطعة أخرى أنشدها الغزال في هجاء يخامر، هي:

لقد سمعت عجيبا من آبدات يخامر قرأ عليه غلام طه وسورة غافر
فقال من قال هذا هذا لعمري شاعر أردت صفع قفاه فخفت صولة جائر
أتيت يوما بتيس مستعبرا متحاسر فقلت قوموا اذبحوه فقال إني يخامر(٥٢)

هذه قطعة جميلة تصور القاضي يخامر جاهلا حتى بالقرآن، مع أن حفظ القرآن كان من أول ما يدرس التلاميذ ويحفظون في الأندلس، ويذكر الشاعر سورة طه وسورة غافر، وهما من القرآن المكي، فتخيل يخامر أنهما من الشعر الجميل، ولا شك أن هذه مبالغة من الشاعر، ليؤكد جهل القاضي، ولكنه يزيد في الموقف ببيان حالته النفسية، فإن الشاعر ضاق بيخامر لما قال هذا الكلام عن القرآن، أي لما قال إنه شعر، فأراد أن يضربه على قفاه تأديبا له، وتنبيها على جهله، غير أنه خشي سطوة الأمير عبدالرحمن الأوسط، لأنه هو الذي عين يخامر قاضيا في قرطبة، وقد صوره بعد ذلك في صورة التيس، والتيس يضرب به المثل في عدم الفهم، والقدرة على النطاح، فلما أشار بذبحه، قال التيس: إني يخامر.

هذه القطعة شديدة جدا، وربما كانت سببا من الأسباب التي جعلت الأمير يعزله، ويولي مكانه القاضي على بن أبي بكر الكلابي(٥٣).

وهجا الغزال نصر بن أبي الشمول، ويلقب أبا الفتح، ويعرف بنصر الخصي، وكان أثيرا عند عبدالرحمن الأوسط، فكان يخلفه إذا خرج لغزو أو لأمر ما، وكان يشارك الوزراء، وكان عبدالرحمن يستشيره فيما يحزبه. وكان هذا الخصي مقربا من السيدة طروب حظية الأمير، وقد أراد أن ينقل ولاية

٥٢- المرجع السابق، ص ٢٠١.

٥٣- **قضاة قرطبة**، ص ٥٥.

العهد لعبدالله بن طروب، ويترك محمد الابن الأكبر، فرفض عبدالرحمن، وجعل ولاية العهد لابنه محمد، فحمل الخصي في نفسه، وأراد أن يقضي على الأمير سيده، فذهب إلى الطبيب يونس بن أحمد الحراني، وطلب منه أن يعد له سما قاتلا ويضعه في الدواء الذي يتناوله الأمير عبدالرحمن، ووعد الطبيب بهدية كبيرة ومنصب عال، وأعطاه ألف دينار عاجلة، والبقية بعد موت الأمير، فأخذ الطبيب الدنانير، وأعد الدواء المسموم، وأخبر جارية عبدالرحمن التي تدعى "فجر"، بما اتفق معه نصر، وقال لها: أخبري الأمير بالأمر، وقولي له: لا تشرب الدواء الذي يأتيك به نصر، فذهبت وأخبرت عبدالرحمن، فاحتاط للأمر، فلما جاءه نصر حاملا الدواء المسموم، قال: اشرب أيها الأمير، قال عبدالرحمن: لا أجد رغبة فيه، اشربه أنت، فلما تردد الخصي في شربه، قال له: سبحان الله! دواء أعددته لي لماذا لا تشربه؟ فلم يجد نصر مناصا من شربه فشربه، وخرج مسرعا إلى الحراني يطلب علاجا للسم، فقال له: اشرب لبن الماعز، فإنه يخفف، فأرسل ناسا يطلبون لبن المعز، فأبطاوا فقضى نحبه قبل أن يأتوا، وهكذا أهلك نفسه من أجل غيره، وخسر الدنيا والآخرة(٥٤). قال الغزال في نصر:

أيا لاهيا في القصر قرب المقابر ... يرى كل يوم واردا غير صادر
كأنك قد أيقنت أن لست صائرا ... غدا بينهم في بعض تلك الحفائر
تراهم فتلهو بالشراب وبعض ما ... تلز به من نقر تلك المزاهر
وما أنت بالمغبون عقلا ولا حجى ... ولا بقليل العلم عند التخابر
وفي ذاك ما أغناك عن كل واعظ ... شفيق وما أغناك عن كل زاجر
وكم نعمة يعصي بها العبد ربه ... وبلوى عدته عن ركوب الكبائر
سترحل عن هذا وإنك قادم ... وما أنت في شك على غير عاذر(٥٥)

هذه قطعة في هجاء نصر، فهو موصوف باللهو والعبث والجبروت، وهو يسكن في منيته التي تسمى منية نصر، وكانت في مواجهة مقابر قرطبة، فالشاعر يرى نصرا غافلا لا يتعظ بالموتى الذين يحملون للمقبرة أمام بيته كل يوم، كأنه متأكد من دوام حياته، وأنه لا يدركه الموت، ويصفه الشاعر بأنه يتعاطى الخمر، ويسمع الزمر في لياليه، مع أن له عقلا وعلما، وكم من عالم يعرف الحلال والحرام، ثم لا يبالي بما أتى.

ويورد الشاعر بيتا كأنه حكمة وسط هذا الشعر. وهي أن الله ينعم على قوم، فيفسدون

٥٤- **المقتبس**، ص ١٤٩-١٥٠.

٥٥- **المقتبس**، ص ١٥٣، **الديوان**، ص ٥٩.

ويستخدمون هذه النعم في المعاصي، ويصيب آخرين بمصائب فتبعدهم عن الشر، وبذلك تكون البلوى في الحقيقة نعمة، والنعمة تحولت على يد الجهلة إلى نقمة، لأنهم بدلا من أن يشكروا كفروا وافتروا.

لماذا كان الغزال يكره نصر الخصي؟ يبدو أن الخصي كان جبارا غره المنصب، وقربه من الأمير عبدالرحمن، وكان يرهب الأندلسيين، وكان طماعا خوانا، يقول عنه المؤرخ ابن حيان: "وكان هلكه شبيه الفجاءة، في عقب شعبان من هذه السنة ٢٣٦هـ أرقى ما كان في غلوائه، وأطمع ما هو بالاحتواء على أمر سلطانه، وأرهب ما كان الناس له، وأخوفهم لعدوانه،..."(٥٦). وشخص هذه صفاته لابد أن يكرهه الخلق، ويستبشروا بهلاكه، لذا يقول ابن حيان: "فسر الناس بحتفه، وأطبقوا على ذمه"(٥٧). وأنشد الغزال عند موت نصر الخصي يذمه:

أغنى أبا الفتح ما قد كان يأمله — من التصانع والتشريف للدور
وكل عرض وفرض كان يجمعه — حفيرة حفرت بين المقابير
لم يألها القوم تضييقا ولا وقعت — فيها الكرازين إلا بعد تقدير
فصار فيها كأشقى العالمين وإن — لفوه بالنفح في مسك وكافور
ما العرف لو أخبرونا بعد ثالثة — إلا كعرف سواه في المناخير
وكان أزمع شيئا لم تكن سبقت — به من الله أحكام المقادير
إذا أراد الإله الشيء كونه — فلن يضرك فيه سوء تدبير(٥٨)

يعبر الشاعر عما حدث لنصر، ويرى أنه لم يأخذ شيئًا من دنياه، لا المنصب أفاده، ولا المال نفعه، لقد وضع في لحد ضيق، يعبر عنه الشاعر بلفظة حفيرة، وهي تصغير حفرة، للتحقير، قد ضيقها الحافرون لتكون على مقدار الجسد فقط. ويرى الشاعر أن نصرا صار فيها كأفقر الناس ممن لا مال له ولا سلطان، فهم يوضعون في حفرة أيضًا، حتى وإن وضعوا على نصر المسك والكافور، وإن كفنوه في الحرير والديباج، فسيصير ريحه مثل غيره بعد ثلاثة أيام، لا فرق بين غني وفقير، ولا بين حاكم ومحكوم.

وأشار الشاعر إلى حكاية نصر، ومحاولته قتل الأمير عبدالرحمن بالسم، ولكن الله نجى الأمير لأن له أجلا، ولم يشأ الله أن يموت مسموما، ولذلك يجب التوكل على الله، لأن الله إذا أراد شيئًا

٥٦- **المقتبس**، ص ١٤٩.

٥٧- المرجع السابق، ص ١٥١.

٥٨- **المقتبس**، ص ٥٢، **الديوان**، ص ٦٠-٦١.

كان، ولن يضر المرء ما يدبر له أهل السوء والحسد، مادام الله معه. وهذا البيت الأخير حكمة مستمدة من الحياة.

هذه الأبيات أشبه بالقص، فهي حكاية عن نصر، ولذلك جاءت بلغة سهلة، وأسلوب خبري متصل، والصورة فيها قريبة جدا مما يجري على لسان ألسنة الناس.

وقد ولى الأمير عبدالرحمن عثمان أخا يخامر القضاء، وكان رجلا صالحا، يحسن الظن، قال ابن حيان: "وكان قد ولى الأحباس بقرطبة رجلا أحسن الظن به، فلما بلاه أكذب ظنه"(٥٩)، فحكى ذلك للغزال، فهجا الشاعر ذلك الرجل قائلا:

يقول لي القاضي معاذ مشاورا ... وولى امرأ فيما يرى من ذوي العدل
فديتك ماذا تحسب المرء صانعا ... قلت وماذا يفعل الدب بالنحل
يدق خلاياها ويأكل شهدها ... ويترك للذبان ما كان من فضل(٦٠)

هذه الأبيات رواها الخشني في كتابه عن القضاة، وقد نقلها ابن حيان عنه، ونلحظ أن ابن حيان يحكي أن القاضي معاذ استشاره في هذا الرجل الذي ولاه أحباس قرطبة، وأن الغزال كان يعرف أنه غير أمين، لذلك هجاه، وصوره في صورة الدب الذي لا هم له إلا نفسه، فهو مفسد، يأكل العسل ويقتل النحل، لا ينتظر منه خير، والصورة هنا تشبيه تمثيل ممتع، قد أدى المعنى، وأوصله إلى القلب في أقل الألفاظ وأدقها، وهي تدل على أن الغزال كان يقصد بهجائه المنحرفين الذين لا يلتزمون جادة الطريق، وليس يهجو لمجرد الهجاء.

وقريب من هذا الهجاء هجاؤه لعدلين من عدول القاضي معاذ، إذ لم يكونا عدلين في الحقيقة، بل كانا ظالمين، يدعى أولهما أبو حفص، والآخر يحيى بن مالك، يقول فيهما الغزال:

أتاك أبو حفص ويحيى بن مالك ... فأهلا وسهلا بالوغى والمعامع
رجال إذا صبوا عليك شهادة ... حكت فيك وقع المرهنات القواطع
أقول لديكي إذ رأيت وجوههم ... تعز فقد جاءتك إحدى الفجائع
رثى واستهلت عند ذاك دموعه ... وقال كثيرا ما أفاضوا مدامعي(٦١)

٥٩- المرجع السابق، ص ١٥١.

٦٠- **المقتبس**، ص ٢٠٤-٢٠٥، **قضاة قرطبة**، ص ٥٦.

٦١- **المقتبس**، ص ٢٠٥.

يهجو الغزال هذين الرجلين بأنهما كذابان، يشهدان زورا، حتى إن الحيوانات والطيور لتكرههما، فديك الشاعر إذا رآهم يحزن، وعندما يصبره صاحبه الشاعر بعبارة ساخرة "تعز فقد جاءتك إحدى الفجائع" نظر إليه وبكى، وقال: إنهم أحزنوه كثيرا بكلامهم الملفق، وكذبهم البين. وتصوير الشاعر لشهادتهما الزور بوقع السيوف المرهفة تشبيه رائع جسد جبروت هذا القول السيء، وأبان عن نتيجته، فهو يضيع الحقوق، وينصر الظلم، وكل هذا ضد ما يجب أن يكون عليه الشاهد العدل. وقد بالغ الشاعر حتى جعل الديك يحزن لرؤيتهم، ويشهد أنهم أس البلاء، وأن إساءتهم لم تقتصر على بني الإنسان، وإنما امتدت إلى الحيوانات والطيور، والديك جزء يراد به الكل. وقال الغزال في هجاء رجل بخيل يسمى خالدا:

قصدت بمدحي جاهدا نحو خالد ... أؤمل من جدواه فوق منائي
فلم يعطني من ماله غير درهم ... تكلفه بعد انقطاع رجائي
كما اقتلع الحجام ضرسا صحيحة ... إذا استخرجت من شدة ببكاء(٦٢)

إن الشاعر مدح خالد هذا وبالغ في المدح: لكي يهبه بعض المال، فبخل وشح، ولم تسمح نفسه إلا بدرهم يتيم، وهبه له بعد أن يئس الشاعر من عطائه، ولذلك يصوره بخلع الضرس، وفي ذلك الزمان كان نزع الضرس عسيرا، يخلع بدون تخدير، وهي صورة تمثيلية جميلة توحي بشدة الشح، وجفاف اليد، وتفرد المهجو في خصلة البخل. وللغزال قطعة في هجاء امرأة يبدو أنها كانت عجوزا، سليطة اللسان، قبيحة السلوك، يقول الشاعر:

جرداء صلعاء لم يبق الزمان لها ... إلا لسانا ملحا بالملامات
لطمتها لطمة طارت عمامتها ... عن صلعة ليس فيها خمس شعرات
كأنها بيضة الشاري إذا برقت ... بالمازق الضنك بين المشرفيات
لها حروف نوات في جوانبها ... كقسمة الأرض حيزت بالتخومات
وكاهل كسنام العيس جرده ... طول السفار وإلحاح القتودات(٦٣)

يرسم الشاعر صورة ساخرة مضحكة لهذه المرأة السليطة اللسان، فهي جافة العود، صلعاء الرأس، ذهب جمالها، وطال عمرها، ولم يبق لها إلا لسان فظيع، لا يكف عن السباب، ويبدو أنها تشاجرت مع الشاعر فلم يملك نفسه، فضربها ضربة أطارت خمارها، فظهرت صلعتها، وبان أن رأسها صلعاء ليس بها

٦٢- **الديوان**، ص ٢٧.

٦٣- المرجع السابق، ص ٤٢.

إلا خمس شعرات، عدها الشاعر لقلتها وندرتها، ويصور رأسها الأصلع بخوذة الخوارج اللامعة، وكان الخوارج يعنون بأدوات الحرب، ومنها الخوذات، فهي تلمع دائما بين المقاتلين في المعارك. ويزيد الشاعر في رسم الصورة، فيرى أن رأس تلك المرأة لها عظام ناتئة في جوانبها، كأن الحديد الذي يفرق بين الأراضي الزراعية. ويبالغ في تشويه صورتها فيقول: إن لها ظهرا منحنيا، ولها حدبة على كاهلها كأنها سنام الجمل، غير أنها سنام جاف، لا لحم فيه ولا شحم.

تلك صورة ساخرة ضاحكة، رسمها الشاعر بقلمه، كأنها صورة كاريكاتورية، وكأننا نرى تلك المرأة أمام أعيننا، فهي صورة كلية بديعة في تركيبها وترابط أجزائها.

ولم يكن الغزال يعجبه المراءون فكان يحمل عليهم، ويهجوهم، وقد رأى رجلا منهم فقال فيه:

ومراء أخذ الناس بسمت وقطوب وخشوع يشبه السقم ووضعف في الدبيب

فقلت هل تألم شيئًا قال أثقال الذنوب قلت لا تعن بشيء أنت في قالب ذيب

إنما تبنى على الوثبة في حين الوثوب ليس من يخفى عليه منك هذا بلبيب(٦٤)

إن هذا الرجل المرائي يتصنع التقوى، ويظهر بمظهر الخاشع الحزين، وهو يمشي مشيه المريض، فلما رآه الغزال على هذه الحال سأله: هل هو مريض، فهو حزين، ويسير ببطء شديد؟ فأجاب إجابة كاذبة بأنه يعاني من كثرة ذنوبه، وبالطبع هذا ليس بصحيح، فإن كان مذنبا لماذا لا يتوب بينه وبين الله دون تظاهر بالبكاء والتجهم؟ إنما هو يخدع الناس، ولكن هذا الخداع لا يخفى على الشاعر الذكي، فواجهه بالحقيقة المرة، وهي أنه مثل الذئب في خبثه، وأنه ينكمش حتى ينتهز الفرصة، وأي امرئ يغتر بهيئته إنما هو جاهل غبي، لأن الرياء مفضوح دائما.

والصورة التي رسمها الشاعر دقيقة مترابطة تعتمد على الهيئة والحركة والصوت، والحوار، وهي بلغة واضحة دقيقة.

ولم يكن الشاعر يقبل أن يتزوج شيخ عجوز بنتا صغيرة، حتى لو قالت له إني أحبك، وقد تعرضت له فتاة وهو كبير، وأخبرته أنها تهواه، فرد عليها ردا شديدا، هذا الجواب داخل في الهجاء بطريقة الإيحاء، يقول الغزال:

قالت أحبك قلت كاذبة غري بذا من ليس ينتقد

هذا كلام لست أقبله الشيخ ليس يحبه أحد

٦٤- **الديوان**، ص ٣٥.

سيان قولك ذا وقولك إن الريح نعقدها فتنعقد

أو أن تقولي النار باردة أو أن تقولي الماء يتقد(٦٥)

إن هذه الفتاة تريد أن تغري الشيخ بعبارات غزلية، لقد قالت له مباشرة، إني أحبك، فلم يصدقها، وواجهها بأنها تكذب عليه، وهو رجل مجرب، يعرف طبائع النساء، فعليها أن تغر غيره، من الكبار السذج، لأن هذا القول لا يقبله أبدا، لأن العجوز لا تحبه الفتيات، وهذا قريب من قول امرئ القيس:

آراهن لا يحببن من قل ماله ولا من رأين الشيب فيه وقوسا

ثم يضرب الشاعر مثلا لكلام هذه المراة، فيقول إن كلامها: "أحبك" مثل قولها إننا نربط الريح ونعقد بعضها ببعض، وهو أيضًا مثل قولها: "النار باردة، وليست حارقة أو حارة، وقولها: الماء يتقد مثل الزيت، وكل ذلك مناف للواقع، أي أن الفتاة يجب أن تحب فتى مثلها لتدوم العشرة، أما ضحكها على العواجيز من أجل أن تسلب مالهم، فهذا لا ينطلي إلا على عجوز أحمق.

والصورة التي نسجها الشاعر عبرت عن هدفه بأقل قدر من الألفاظ، والتمثيل الذي استخدمه من الطبيعة، وقد جسد ما يريد من المعنى، وأبلغه للقارئ سريعا. وهجا الغزال رجلا بقصيدة لم يذكر منها المؤرخون إلا بيتين هما:

فكأني بعمير منك قد سل الحشاشة أنت والله كما حامت على النار الفراشة(٦٦)

كان الشاعر يهدد الرجل الذي يهجوه، لأنه ارتكب إثما عظيما، فهو ينذره أن عميرا سيقتله، لأنه فاسق مفسد، فمصيره السجن والتعذيب. وعمير الموجود في البيت كان جلاد الأمير عبدالرحمن، إذا غضب الأمير من أحد، أرسله إلى الحبس، وسلط عليه عميرا الضاغط، وقد كان قاسيا، من زبانية العذاب، لا يعرف الرحمة، ومصطلح الضاغط عند الأندلسيين، أي الذي يعذب الناس في السجن، وهو الجلاد بتعبيرنا الحديث، ومبالغة الشاعر في قوله: "سل منك الحشاشة" والحشاشة هي الروح، وكذلك تشبيه المفسد بالفراشة التي تحوم حول النار دقيق، لأن الفراشة تقع لا محالة في النار، فتحترق بها، وهذا سينال عقابا شديدا يصل إلى الإعدام.

٤- النقد الاجتماعي:

كان الغزال حكيما عاقلا، غير أنه كان أميل إلى التشاؤم، فهو ينتقد أهل عصره انتقادا شديدا

٦٥- **الديوان**، ص ٤٥.

٦٦- **الديوان**، ص ٦٢.

لا يستثني منهم أحدا، فها هو يقول:

لا ومن أعمل المطايا إليه كل من يرتجي إليه نصيبا
ما أرى ها هنا من الناس إلا ثعلبا يطلب الدجاج وذيبا
أو شبيها بالقط ألقى بعينيه إلى فأرة يريد الوثوبا(٦٧)

يبدو تشاؤمه من أهل عصره في هذه الأبيات، فهو يحلف بالله الذي يشد الناس رحالهم إلى بيته الحرام، يرجون رحمته، ويرغبون في رضاه، يقسم على أنه لا يرى أحدا من الطيبين المخلصين، وإنما يرى لصوصا وجشعين مثل الثعالب التي تبحث عن الدجاج لتأكله، وبعضهم مثل الذئاب، والذئب يضرب به المثل في الخبث والختل، فهؤلاء الناس المعاصرون له خبثاء، وإذا لم يكونوا ثعالب وذئابا فهم قطط تتربص بالفريسة، وهي الفئران الضعيفة، حتى تمكنها الفرصة فتسطو عليها، وتلتهمها.

ولعل الشاعر قد اصطدم ببعض الظالمين، فساء ظنه بالناس جميعا، وهي حالة نفسية تنتاب بعض الآدميين، لاسيما الشعراء، ونحن نعرف تشاؤم ابن الرومي الذي تحول إلى مرض نفسي.

والتشبيهات التي استخدمها الشاعر من الطبيعة الحيوانية، وقد أدت وظيفتها في حمل المعنى، وليس في هذه الصورة عيب ولا تنافر، فهي متآزرة. ويقول الشاعر أيضًا:

إذا اخبرت عن رجل برئ من الآفات ظاهره صحيح
فسلهم عنه هل هو آدمي فإن قالوا نعم فالقول ريح
ولكن بعضنا أهل استتار وعند الله أجمعنا جريح
ومن إنعام خالقنا علينا بان ذنوبنا ليست تفوح
فلو فاحت لأصبحنا هروبا فرادى بالفلا ما نستريح
وضاق بكل منتحل صلاحها لنتن ذنوبه البلد الفسيح(٦٨)

يرى الغزال أن جميع بني آدم مسيئون، وأنه ليس فيهم بريء حقيقي، فإذا سمعت قوما يقولون: إن فلانا رجل طاهر نقي صحيح، فيجب أن تسألهم سؤالا واحدا، هل هو من نسل آدم؟ فإن جاء جوابهم بالإثبات فقل لهم ليس صحيحا. إذن ما القضية؟ القضية في نظر الشاعر ترجع إلى الستر، أي أن الله يسترنا، فقد يفعل البعض أفعالا قبيحة، فيسترها الله عليهم، ومن حولهم لا يدرون عنها شيئًا، فيظنون بهم

٦٧- **نفح الطيب**، ج ٢، ص ٢٥٧، **الديوان**، ص ٣٢.

٦٨- **الديوان**، ص ٤٣.

الظن الحسن، ولكن الحقيقة أن الجميع مخطئون، وقد أنعم الله علينا بهذا الستر، ولم تنتشر رائحة الذنوب، ولو قدر أنها فاحت وظهرت لهرب بنو آدم في الصحراوات، كل واحد وحده، لأنه لا يطيق رائحة أخيه، ولا أخوه يطيق رائحته. حتى إن من شهر بالصلاح والتقوى تفوح ذنوبه، فينتن منها البلد الشاسع.

هذه القطعة يغلب عليها التفكير العقلي، فهي أقرب إلى الفلسفة وإن كانت تضم هجاء مبطنا لبني آدم، وخاصة معاصريه. والصورة الواردة تعتمد على الحركة والتجسيد، وتدرك بحاسة الشم. ويقول عن أهل عصره كذلك: "إذا ما نظرت في عرض الناس كأني أراهم في الظلام".

وكأن الذي أصيب على الأيام شيء أصبته في المنام[٦٩] لماذا يرى الشاعر معاصريه بهذه الصورة السوداوية؟ فهو يقول إنه إذا نظر في الناس جميعا لم يجد بينهم من يستحق الاحترام، فهم كأنهم في ظلام، وهو لا يراهم، وكل ما يصل إليه يمضي كأنه حلم رآه في نومه.

إن الشاعر متشائم، ولذلك ينضح تشاؤمه على عينيه وفكره، ويسيطر على عاطفته، حتى تستولي السوداوية عليه تماما، وتصبح مرضا، على أية حال فإننا إذا نظرنا في أحوال الشعراء سنجد عند كل واحد صفة نفسية، كالخوف أو التشاؤم أو الحزن أو البهجة، وهي قليلة. ويقول أيضًا:

إذا كنت ذا ثروة من غنى فأنت المسود في العالم
وحسبك من نسب صورة تخبر أنك من آدم[٧٠]

يؤكد الشاعر أن المال هو الأساس عند الناس، فالغني يسود ويتقدم، والفقير يتأخر حتى لو كان عالما صالحا. وقد يكون الغني غبيا، أو قبيح الوجه، عديم الفكر، ولكن المال يغطي على قبحه ويكفيه أنه على صورة بني آدم. ولا شك أن هذا القول صحيح عند كثير من الناس قديما وحديثا، فهم يقيسون مكانة الإنسان بماله وثروته، لا بعلمه وخلقه، ولكن أهل الدين والعلم والعقل الصحيح.

يؤكد الشاعر أن المال هو الأساس عند الناس، فالغني يسود ويتقدم، والفقير يتأخر حتى لو كان عالما صالحا. وقد يكون الغني غبيا، أو قبيح الوجه، عديم الفكر، ولكن المال يغطي على قبحه، ويكفيه أنه على صورة بني آدم. ولا شك أن هذا القول صحيح عند كثير من الناس قديما وحديثا، فهم يقيسون مكانة الإنسان بماله وثروته، لا بعلمه وخلقه، ولكن أهل الدين والعلم والعقل الصحيح يوقرون العلم وأهله، ولا يقيسون الناس بماهم، فكثير منه حرام.

٦٩- **الديوان**، ص ٧٦.

٧٠- **الديوان**، ص ٧٧.

وانتقد الشاعر الأغنياء في عصره، لأنهم كانوا يباهون بأموالهم، ويتفاخرون بثروتهم، حتى إنهم يبنون قبورهم بالرخام ويزينونها، وينفقون عليها أموالا ضخمة، ويكتبون عليها أسماءهم وتواريخ وفاتهم، كأنهم فراعنة، مع أن هذه الأبنية والزخرفة لن تفيد الميت، وإنما يفيده عمله الصالح، ولذلك يقول هذا الشاعر الحكيم:

أرى أهل اليسار إذا توفوا بنوا تلك المقابر بالصخور
أبوا إلا مباهاة وفخرا على الفقراء حتى في القبور
فإن يكن التفاضل في ذراها فإن العدل فيها في القعور
رضيت بمن تأنق في بناء فبالغ فيه تصريف الأمور
ألما يبصروا ما خربته الدهور من المدائن والقصور
لعمرو أبيهم لو أبصروهم لما عرفوا الغني من الفقير
ولا عرفوا العبيد من الموالي ولا عرفوا الكبير من الخفير(٧١)

هذا النص يعد وثيقة تاريخية من التاريخ الاجتماعي للشعب، وعاداته التي درج عليها، بجانب القيمة الجمالية للشعر، والمتعة العاطفية لهذا الفن. والمسألة المهمة في نقد الشاعر لاتجاه الأغنياء نحو التفاخر والتعالي على الفقراء، هو رؤيته للعدل الإلهي، فإن الله لا ينظر إلى هذه الأشياء الظاهرة، وإنما ينظر إلى النيات، ولذا فإن العدل تحت أي في القبور. وهو ينظر إلى ما ورد في السنة، وهو أن القبر إما أنه روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، فكل واحد من الناس سينال جزاءه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ويرضى الشاعر بحكم القدر، فإن من بالغ في البناء، سواء أكان قصرا أو قبرا، فإن الأيام ستأتي عليه، وسيخرب كما قال الشاعر: "لدوا للموت وابنوا للخراب".

ويتساءل الشاعر، هل هؤلاء الأغنياء لم يروا المدن والقصور التي خربها الزمان؟ لماذا لا يتعظون؟ أليس لهم عقول؟ ثم يقسم الشاعر بقسم عربي موروث "لعمرو أبيهم" أي وحياة والدهم، لو أنهم رأوا هؤلاء الأغنياء الذين ماتوا بعد فترة وجيزة، لرأوا عظاما قد زال لحمها، وتاهت معالمها، حينئذ لا يعرفون من الغني ومن الفقير، ولا من الرجل ومن المرأة، لقد تساوى الجميع بعد الموت. ويتتبع الشاعر المعنى، ويستقصي صوره بطريقة واضحة جميلة في الأبيات خاصة الأربعة الأخيرة.

وفي قطعة أخرى رائعة يعرض الشاعر بالنقد الاجتماعي لمرض شاع بين الناس، وهو تزويج

٧١- **النفح**، ج ٢، ص ٢٥٦-٢٥٧، **الديوان**، ص ٦١.

البنت رجلا عجوزا غنيا، وهذا أمر مازال يحدث حتى الآن، وأغلبه نابع من الطمع في المال، وهم عادة ينتظرون موت العجوز لترثه الفتاة، ثم تبحث عن شاب في مثل سنها. والشاعر بذكائه صور عذراء ذكية خطبها شيخ كبير غني وشاب فقير، وجعل أباها يخيرها، مع أن التخيير هنا لا مجال له، فإن الشاب يتزوج شابة يقاربها، والشيخ يتزوج شيخة تناسبه، ويبدو أن والدها كان يريد الغني، ولكن البنت كانت مقنعة في الرد، يقول الشاعر:

وخيرها أبوها بين شيخ ... كثير المال أو حدث فقير
فقالت خطتا خسف وما إن ... أرى حظوة للمستخير
ولكن إن عزمت فكل شيء ... أحب إلي من وجه الكبير
لأن المرء بعد الفقر يثرى ... وهذا لا يعود إلى صغير(٧٢)

إن الفتاة في هذا الحوار الجميل تجيب أباها بذكاء شديد، إذ ترى أن زواج الكبير لا خير فيه، وزواج الشاب الفقير متعب، لأنها ربما تجوع معه أو تعرى، ولكن إذا كان لابد لها من الاختيار، فهي تختار الشاب الفقير، لأنه ربما يجتهد ويرزقه الله، فيغتني، وهذا في الواقع كثير الحدوث، وأما الشيخ الكبير فإنه لن يصير إلى الشباب مرة أخرى، لقد ذهبت فتوته، واقتربت منيته. ونلحظ هنا حسن الجواب، وهو ـ ولا شك ـ كلام الشاعر، لأنه كان لا يرى عدم الكفاءة في الزواج، كان يشترط الكفاءة، وتقارب السن من أهم عناصرها، ولذا سبق قوله "الشيخ لا يحبه أحد".

يبدو أن هذه الأبيات بقية من قصيدة بنيت على صورة قصة شعرية إن موقف الشاعر من النساء وانكباب الرجال عليهن، والسعي إليهن، رافض لهذا الكلف، وداع إلى استعمال العقل في التصرف، التصرف، يقول الشاعر:

يا راجيا ود الغواني ضلة ... ففؤاده كلفا بهن موكل
لا تكلف بوصلهن فإنما ... الكلف المحب لهن من لا يعقل
إن النساء لكالسروج حقيقة ... فالسرج سرجك ريثما لا تنزل
فإذا نزلت فغيرك نازل ... ذاك المكان وفاعل ما تفعل
أو منزل المجتاز أصبح غاديا ... عنه وينزل بعده من ينزل
أو كالثمار مباحة أغصانها ... تدنوا لأول من يمر فتأكل

٧٢- **جذوة المقتبس**، ص ٣٧٥، **بغية الملتمس**، ص ٥٠، **الديوان**، ص ٥٢.

أعط الشبيبة لا أبا لك حقها منها فإن نعيمها متحول
وإذا سلبت ثيابها لم تنتفع عند النساء بكل ما يستبذل[٧٣]

هذه صورة تعبر عن نقده الاجتماعي للنساء، وهي رأي خاص، فالحسناوات في رأيه لا عهد لهن، فهن يتحولن سريعا، ويتغير مزاجهن، ولذلك ينصح الرجل الذي يهيم بالنساء الجميلات، ويضطرب بالبحث عنهن، ينصحه بألا يعني بوصلهن، لأن العاشق لهن من لا عقل له، ثم يصور النساء بصورة السرج على ظهر الحصان أو الفرس، فهو خاص بالفارس طالما هو راكب عليه، وإذا نزل فإن غيره سيركب على السرج نفسه. والصورة توحي بأن المرأة سرعان ما تغير الرجل، وتصحب غيره، وإذا مات تزوجت آخر، وعلى الماضي السلام. ويصورها أو يشبهها بتشبيه آخر، يشبهها بالفندق العام أو النزل، ينزل فيه المسافرون ليلة أو بضع ليال، ثم يرحلون، ويأتي غيرهم يسكن مكانهم، ولم يكتف الشاعر بهذين التشبيهين، وإنما أتى بصورة ثالثة هي الثمار المباحة، فالنساء كالثمار المباحة يأكل منها من يمر بها. هذه صور ثلاث تدل على النظرة السلبية للنساء، والحق أن النساء لسن سواء، فمنهن الصالحة ومنهن دون ذلك، مثل الرجال، منهم المخلصون ومنهم أصحاب مذاهب اللذة، وهم الذين يبحثون عن المتعة الجسدية فحسب، بيد أن الشعر فن ذاتي، يعبر عن ذات الشاعر وفكره، وموقفه من الحياة والناس.

وينهي الشاعر قطعته ببيتين يرشد فيها المتلقي إلى أن ينتهز فرصة الشبيبة أو الشباب فيمتع نفسه دون تعلق بالغواني، لأن محاسن هذه المدة ستمحى وتزول، وإذا ذهب الشباب لأن يعود، وإذا ذهبت فتوته لن يستفيد من النساء بشيء مهما بذل من المال أوغيره. فإن الحسناوات لا يملن إلى العجائز أو الشيوخ.

ولكن ما حق الشبيبة الذي يوجه الشاعر القراء إليه؟ أظنه يقصد المتع الروحية، لأنه في مكان آخر افتخر أنه لم يضيع شبابه في البطالة أو اللهو بالنساء، وإنما قضاه في تحصيل العلم والأدب، فوصل إلى مكانة عالية، وأصبح مذكورا مشهورا، وها نحن بعد مضي ألف ومائة وخمسين عاما على وفاته تقريبا نكتب عنه، ونحلل شعره، فكأنه حي بيننا.

وينتقد الشاعر طائفة السائلين الذين يلحفون في السؤال، وهم موجودون في كل مجتمع، وإن كان الأندلسيون يمقتون الرجل القادر على العمل، وهو يسأل ويتسول، بل كانوا ينهرونه. ويظهر أن السائل ألح كثيرا في الطلب من الشاعر فلم يعطه شيئًا، يقول الشاعر:

٧٣- **المطرب**، ص ١٤٦-١٤٧، **النفح**، ج ٢، ص ٢٥٩، **الديوان**، ص ٦٥-٦٦.

قلت إذا كرر المقالة يكفي أنت أولى بدرهمي أم عيالي

لست ممن يكون يخدعه مثلك فاعلم بهذه الأقوال

ما أؤدي الزكاة إلا كما يعصر زق معسل بالحبال(٧٤)

القطعة مبنية على الحوار، فالسائل يحاصر الشاعر بكلام كثير، يكرر الحديث والطلب، فرد عليه الشاعر أن يكف عن الحديث والقول لأن عياله أحق بماله ؛ وهو رجل مستور وليس من الأغنياء، وهو لا ينخدع للخداعين، فإن كثيرا من الشحاذين مخادعون، والشاعر ذكي لا ينطوي عليه هذا الكلام الذي يسوقه المتسول، ويختم حواره معه إنه لا يؤدي الزكاة إلا بشق النفس، وهو يستخدم تشبيها رائعا "كما يعسر زق معسل بالحبال"، أي كما يعصر الناس قربة العسل عصرا شديدا ليستخرجوا كل ما فيها. هذه الصورة لا تدل على البخل، وإنما توحي بأن الشاعر لا يتحقق له المال الذي يحول عليه الحول، فيجب عليه فيه الزكاة، فإذا حدث مرة فهي مرة نادرة.

وقد نقد الشاعر طائفة الفقهاء، فهم لا يشقون، ولكن مع ذلك تراهم أغنياء، والناس يكدون ولا يجمعون مثلهم، وبالطبع هو لا يقصد الفقهاء الصالحين، وإنما يقصد هؤلاء المنحرفين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، فهم مثل بعض القسيسين وأحبار اليهود، وفي كثير من الديانات نرى جماعة من شيوخهم يحتالون لجمع المال بالكذب والتمويه، كما كان القسيسون في أوربا يبيعون الجنة للناس الذين يدفعون لهم، وكل واحد يأخذ منها على قدر ما يدفع، فمنهم من يأخذ قيراط، ومنهم من يشتري فدانا، وإن كان أفسق الفاسقين. كل هذا من فساد طائفة من أهل الأديان، يقول الغزال:

لست تلقى الفقيه إلا غنيا ليت شعري من أين يستغنونا

نقطع البر والبحار طلاب الرزق والقوم ها هنا قاعدونا

إن للقوم مضربا غاب عنا لم يصب قصد وجهه الراكبونا(٧٥)

يتعجب الشاعر من غنى هؤلاء الفقهاء وهم قاعدون لا يضربون في مناكب الأرض، وغيرهم يجوب البحار والقفار في طلب المال، فمنهم من يجد، ومنهم من يحرم، وأما الفقهاء فهم أغنياء، لا شك أن لهم سعيا آخر لا يدركه هؤلاء المكافحون العاملون، والشاعر يلمح إلى أنهم يستغنون من حرام. أقل شيء أنهم يحيطون بالحاكم ويفتون له كيف يشاء، فيهبهم من مال الشعب الذي قنصه. وأقول: إن فقهاء الأندلس

٧٤- **الديوان**، ص ٧٢.

٧٥- **الديوان**، ص ٧٧.

لم يكونوا كلهم هكذا، وإنما كان فيهم صالحون كثيرون، وكانوا يجاهدون، وينطقون بالحق، ولا يخشون حاكما أو محكوما، وكان بعضهم يأكل من عمل يده، فكانوا يزرعون الأرض، وكانوا يحترفون حرفا يدوية تدر عليهم ما يكفيهم، هؤلاء هم الأتقياء الذين يصح أن يقتدي بهم الناس في كل مكان.

٦- وصف الخمر:

لم يكن الغزال يشرب الخمر، وقد سبق أنه رفضها عندما قدمتها له الإمبراطورة البيزنطية تيودورا، واعتذر بأن دينه الإسلام يمنع الخمر، وفي قصيدة أخرى أعلن أنه لم يشربها قط، وإنما وصفها على السماع، وقد أخبروه أن فيها مرارة، ولا حاجة لإنسان في شرب المر. لكن لماذا نظم في وصف الخمر؟ لقد نافس الشاعر أبا نواس في هذا المجال ليثبت قدرته على النظم، وليدل على أن أهل الأندلس لا يقل شعرهم عن شعر المشارقة.

لقد حكى ابن دحية أن الغزال عندما هجا زرياب المغني، وكان عبدالرحمن يحبه، اشتكى زرياب للأمير، فأمر عبدالرحمن بنفي الشاعر، ثم توسط له ناس من أهل الخير، فعفا عنه، ولكن الغزال ضاق بالأندلس فرحل إلى العراق، وهناك اجتمع مع جماعة من العراقيين، فأنشدوا أشعارا كثيرة، وأزروا على شعراء الأندلس وتنقصوهم، فأراد الغزال أن يرد عليهم عمليا، فسألهم عمن يحفظ شعر أبي نواس في الخمر، وكان قد نظم قصيدة في وصفها على نسق شعر أبي نواس، فلم يعرفها أحد، فأنشد قصيدته، فأعجب بها الحاضرون، وأخذوا في الثناء الكثير على أبي نواس، ولما أكثروا، قال لهم خفضوا، إنما الشعر لي، وأنشدهم قصيدة أخرى على منوالها، فخجلوا وسكتوا ولم يعودوا يستهزئون بأشعار الأندلسيين، وهذه هي القصيدة التي نظمها في وصف الخمر:

ولما رأيت الشرب أكدت سماؤهم ... تأبطت زقي واحتسبت عنائي
فلما أتيت الحان ناديت ربه ... فهب خفيف الروح نحو ندائي
قليل هجوع العين إلا تعلة ... على وجل مني ومن نظرائي
فقلت أذقنيها فلما أذاقني ... طرحت إليه ريطتي وردائي
وقلت أعرني بذلة أستتر بها ... بذلت له فيها طلاق نسائي
فوالله ما برت يميني ولا وفت ... له غير أني ضامن بوفائي
وأبت إلى صحبي ولم أك آيبا ... فكل يفديني وحق فدائ[٧٦]

٧٦- **المطرب**، ص ١٤٨، **الديوان**، ص ٢٩.

هذه القطعة على هيئة قصة يقص فيها الشاعر أنه لما وجد أصحابه قد نفد ما عندهم من الخمر، أخذ قربته ومشى إلى الحان، فنادى صاحبه، فخرج إليه وهو خائف، فطلب منه خمرا، فلما وهبه ما أراد أعطاه ثيابه كلها، ثم أخذ منه بذلة يستر نفسه بها، على أن يردها له، وقد أقسم له على ذلك بطلاق زوجاته، ولكنه لم يطلقهن، وإنما ضمن أن يرد له تلك الملابس المستعارة، ورجع إلى أصحابه ومعه الشراب، فشربوا، وكل منهم يفديه بأبيه وأمه، وحق له ذلك لكرمه وسخائه وسعيه لسرور أصدقائه.

والقطعة صورة ممتدة متصلة العناصر كاتصال القصة، وهي بلغة ميسورة، وصورها مفهومة حسنة الوضع، وموسيقاها جميلة جدا، والحوار فيها دقيق مقتضب، والحركة بادية في الأبيات وصورها الجزئية، وكذلك الصوت واللون.

وروى الحميدي ما يشبه هذه الحكاية، حكاية أبي نواس في العراق، وأسندها إلى العالم الأديب سعيد بن خالد، وأنها جرت بمصر، عندما كان فيها سعيد، يقول الحميدي: "أخبرني بعض المشايخ بالأندلس أن سعيد بن أحمد بن خالد، كان يحكي أنه لما رحل إلى المشرق لقيه بعض الأدباء بمصر، واستنشده لأهل الأندلس فأنشده، ففضل بعض التفضيل، إلا أنه قال: لا تخفى أشعاركم إلى جانب أشعارنا كما لا يخفى البدر في سواد الليل. فقال له سعيد: صدقت، وأين أهل الأندلس بمثل قول الحسن بن هانئ؟ وأنشده أبيات يحيى بن حكم الغزال:

وكنت إذا ما الشرب أكدت سماؤهم...

فلما سمعها المصري طرب واهتز، وقال: لله در الحسن! فلما أكثر، قال له: الشعر والله ليحيى بن الحكم الأندلسي، وإنما أردت تجربة نقدك، والنقض عليك، فرد ذلك وأكره حتى صح ذلك عنده، فخجل وأظهر التعجب، ولم يراجع بعد في أشعار أهل الأندلس..."(٧٧).

هذه الحكاية تصح أيضًا، ولعل ابن خالد هذا قد سمع خبر الغزال وحكايته مع أهل العراق، فلما كان بمصر، ورأى ناسا يميلون على أهل الأندلس، وينزلون بشعرهم، قص هذه القصة للمصري، وأسكته بها. والمتلقي قارئا كان أو سامعا يستفيد مما يسمع من أخبار وحكايات السابقين، فهي تجارب قوم مفيدة. هذا ولم تورد كتب التاريخ والأدب أية قصيدة أخرى في وصف الخمر إلا هذه.

٧- الحكمة:

الحكمة هي العمل بمقتضى العقل السليم، ويعرفها العلماء بأنها اتباع الدين الصحيح، وعندما

٧٧- **الجذوة**، ص ٢٢٨-٢٢٩.

ننظر في الأمرين لانجد فرقا، فالعقل يتفق مع الدين، والحكمة الواردة في الشعر العربي منذ الجاهلية هي خلاصة تجارب الحياة، وكان الشعراء يضعونها في أبيات قليلة، دقيقة الأسلوب ليحفظها أولادهم فيستفيدوا منها في حياتهم، وإذا نظرنا في أبيات الحكمة التي نظمها زهير بن أبي سلمى مثلا في معلقته، فنجدها حكما عملية مأخوذة من الحياة، فقوله:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

وكذلك قول امرئ القيس رغم انحرافه الأخلاقي:

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

هذه حكمة رائعة نبراس حياة للأجيال. وهي تمتاز بالاختصار على النقيض من فلسفة اليونان، فقد كانت تمتاز الحكمة بالتطويل والإطناب، ولكل أمة طريقتها في استخلاص الحكمة.

وحكم الشاعر الغزال كثيرة، ولذلك وصفه من ترجموا له بالحكيم، يقول الغزال:

وإن مقامي شطر يوم بمنزل أخاف على نفسي به لكثير

وقد يهرب الإنسان من خيفة الردى فيدركه ما خاف حيث يسير[٧٨]

إن الخوف مزعج، والخائف إذا جلس في مكان مزعج بعض اليوم يعده زمنا طويلا، لأن الزمن النفسي يختلف باختلاف الأحوال النفسية، فإذا كان الإنسان سعيدا وجد الزمن يمر سريعا، وإذا كان حزينا أو مضغوطا، وجد الزمان طويلا ضاغطا، كما يقول النابغة في الجاهلية:

ذريني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

تمطى حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بآيب

فالغزال عبر عن معنى الخوف وزمن الخوف تعبيرا مختصرا جميلا، ثم أتى بحكمة أخرى، هي أن الإنسان يدركه الموت، فقد يهرب المرء من مكان يتوقع أن يهلك فيه، ويسير في طريق آخر يظن أنه ينجو، فيأتيه الموت في المكان الذي ظن أنه آمن. ويقول الغزال أيضًا:

من ظن أن الدهر ليس يصيبه بالحادثات فإنه مغرور

فالق الزمان مهونا لخطوبه وانجر حيث يجرك المقدور

وإذا تقلبت الأمور ولم تدم فسواء المحزون والمسرور[٧٩]

٧٨- **الديوان**، ص ٥٤.

٧٩- **النفح**، ج ٢، ص ٢٦٠، **الديوان**، ص ٥٦.

إن أي إنسان يعتقد أنه آمن من حادثة الزمان فإنه مغرور، قد غرته الدنيا، وغشت على بصره، لذلك يجب على الإنسان ألا يهتم بما نزل به، وإنما يقبل ما قضى الله به قبولا حسنا، وما دامت الأمور متغيرة، فسواء الحزن والفرح، ولذلك على المرء أن لا ييأس إذا أصابه مكروه، ولا يفرح فرح البطر إن قدر له الخير، ولعل أبا العلاء قد أفاد من شعر هذا الشاعر في قوله:

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شادي
وشبيه صوت النعي إذا قيس بصوت البشير في كل واد

وفي قصيدة اخرى تاتي حكمته:

أخي عد ما قاسيته وتقلب عليك الدنيا من الخير والشر
فهل لك في الدنيا سوى الساعة التي تكون بها السراء او حاضر الضر
فما كان منها لا يحس ولا يرى وما لم يكن منها عمي عن الفكر
فطوبى لعبد أخرج الله روحه إليه من الدنيا على عمل البر(٨٠)

هذه حكمة نابعة من النظر في أحوال الدنيا، فإن الإنسان إذا أحصى ما مر به من أحداث، سواء كانت خيرا أم شرا، يراها قد انتهت، وصارت خبرا كأحلام الكرى. وليس للمرء إلا الساعة التي هو فيها، أي الحاضر، لأن الماضي قد انتهى ولن يعود، والمستقبل في علم الغيب، لا يدري أحدنا هل يعيش أم لا، لذلك علينا أن نعمل صالحا حتى آخر لحظة، وطوبى للصالحين الذين يموتون على الصلاح والتقوى. ويقول الشاعر:

يعرف عقل المرء في أربع مشيته أولها والحرك
ودور عينيه وألفاظه بعد عليهن يدور الفلك(٨١)

يستطيع المرء أن يحكم على الشخص بالعقل أو الحماقة عندما يتامل في طريقة مشيه، وصفة حركته، ونظر عينيه، وكلامه، فهذه كلها تعمل بناء على ما عند الشخص من العقل، فالعاقل رزين في سيره، هادئ في حركته، جيد النظر، حسن المنطق، وأما الأحمق فهو طائش في مشيته، مضطرب في حركته، زائغ في بصره، يهذي في كلامه، ويهرف بما لا يعرف. وقد استنبط هذا الشاعر الحكيم كل أولئك من تأمله في الحياة والأحياء. ويقول أيضًا:

٨٠- **العقد**، ج ٥، ص ٣٥٢.

٨١- **الديوان**، ص ٦٥.

الناس خلق واحد متشابه لكنما تتخالف الأعمال
ويقال حق في الرجال وباطل أي امرئ إلا وفيه مقال
ولكل إنسان بما في نفسه من عيبه عن غيره أشغال
يستثقل اللمم الخفيف لغيره وعليه من أمثال ذاك جبال
وينام عن دنياه نومة قانع بنعيم دنياه وذاك خيال
ورأيت ألسنة الرجال أفاعيا طورا تثور وتارة تغتال
فإذا سلمت من المقالة غيرما تجني فأنت الأسعد المفضال(٨٢)

يرى الشاعر أن الناس جميعا متساوون في الخلقة والهيئة، ولكن أفعالهم تختلف وتتباين، فمنهم الخير ومنهم الشرير، والناس يتحدثون عن الآخرين بالحق حينا وبالباطل حينا آخر، مع أن كل إنسان فيه جانب خير وجانب شر، وأحيانا يسلك سلوكا حسنا، وأحيانا يخطئ، ولو انتبه كل واحد لنفسه لشغله عيبه عن عيوب الناس، ولكن العجب أن المرء ينظر إلى صغائر الآخرين فيراها كبيرة، ويضخمها بخياله، وينسى خطيئته، وربما تكون مثل الجبال ضخامة، ويذهل كثير من الخلق عن الحقيقة، ويشغلون بالطعام والشراب، وبالمال والمنصب واللذات، وكل ذلك ضرب من الوهم، سرعان ما يأتي الموت، وتذهب الدنيا بمتاعها القليل.

ويصور الشاعر ألسنة الناس بالأفاعي التي تقتل الناس بمجرد لدغها، وهي صورة فظيعة، تجسد المعنى أتم تجسيد، وتبين أثر الكلام على الورى، ولا يسلم أحد من ألسنة الناس سواء أكان صالحا أم طالحا، فإذا لم يقولوا فيه إلا الحق، فهو السعيد المحظوظ الأفضل. هذه أبيات توضح ما كان عليه الشاعر من رهافة الحس والشعور، لذا يستخرج الحكمة من الحياة والأحياء.

وروى ابن عبدالبر في **بهجة المجالس** قطعة جميلة للشاعر في باب السلطان والسياسة، تدل على عمق نظره في الحياة والناس، يقول الغزال:

وإن أعطيت سلطانا فحاذر صولة الزمن
أخو السلطان موصوف بحسن الرأي والفطن
فساعة ما يزاوله رماه الناس باللعن
ويصبح رأيه المحمود منسوبا إلى الأفن

٨٢- **المطرب**، ص ١٥١، **الديوان**، ص ٦٦.

وتبصر في مطيته سقوط العين والأذن

كان بشاشة السلطان حين تزول لم تكن[٨٣]

هذه حكمة عظيمة وجهها الشاعر لمن يتولى إدارة البلاد، وهي ما عبر عنه بالسلطان، أرشده إلى أن يحتاط لنفسه، فلا يغتر بالمدح، ولا يظلم ولا يسرق ولا يقتل، وإنما عليه أن يسير سيرة حسنة، ويحكم بالعدل، وينصف المظلوم حتى من نفسه وأهله، لأن الزمان متغير، والأحوال متقلبة، ومادام الحاكم على كرسي الحكم فرأيه حسن وعقله ذكي في نظر الناس، وكل ما يأتيه ويعمله صحيح، فإذا ما انتهى حكمه، انقلب كثير من الخلق عليه، وقذفوه بالحق وبالباطل، وجعلوا عقله أحمق، وذموه وذموا أهله وحاشيته، ويسقط في عين الناس، كأنه لم يكن سلطانا في يوم من الأيام.

هذه صورة كاملة لوضع الحاكم مع المحكومين، لا ينجو منها إلا العادل الطيب الرحيم، ولغة الشاعر واضحة لا عوج فيها، وصورة قريبة المأخذ، لا تنافر فيها، بل هي متآزرة لآداء المعنى وتجسيمه ليصل إلى العقول والقلوب أسرع ما يكون.

وللشاعر نظرات حكيمة في الحياة، فهو يكره أن يتزوج العجوز صبية مهما أبدت له من حب، لأنه حب مغشوش، يقول الشاعر:

وإذا ادعين هوى الكبير فإنما هو للكبير خديعة وقرون

وإذا رأيت الشيخ يهوى كاعبا فعليه من درك القرون ديون[٨٤]

هكذا يرى الشاعر، إنه يرى البنت تحمل ضغينة في قلبها ضد العجوز، وإن قالت له أحبك، فهو كلام من قبيل الغش والخداع، تخدعه لتستولي على ماله، أو تنال منصبا، أو تمكر به لغرض معين، فليس قولها صحيحا البتة. وإذا وجدت عجوزا يحب فتاة كاعبا، فهو مختل العقل، أين زمانه من زمانها، وأين قوته من عافيتها؟ أما إن كان يعطف عليها عطف الأب الحنون، فهذا شيء آخر غير العشق.

ويبدو أن الشاعر قد نظم كثيرا في هذا الموضوع، وأنه كان يراه مرضا اجتماعيا، لأنه يقول في بيتين باقيين في قصيدة أخرى:

أنا شيخ، وقلت في الشيخ ما يعـ ـلمه كل أبله وذهين

كل شيخ تراه يكثر من كسـ ـب الجواري فخذه لي بالقرون[٨٥]

٨٣- ابن عبد البر، **بهجة المجالس**، ج ١، ص ٣٤٨، **الديوان**، ص ٨٠.

٨٤- **بهجة المجالس**، ج ٢، ص ٤٢، **الديوان**، ص ٧٩.

٨٥- **بهجة المجالس**، ج ٢، ص ٤٢، **الديوان**، ص ٨٠ .

يقرر أنه يقول هذا القول وهو كبير السن، ليس شابا حتى لا يقال إن الشباب يتحاملون على الشيوخ، أي أن كلامه صادق، حديث مجرب، وقد نظم في هذه المسألة قبل ذلك شعرا يعرفه كل معاصريه، ومن يقرأ له سواء أكانوا عقلاء أم مغفلين، وقوله هو أن أي عجوز يستكثر من العذارى في بيته لا عقل له، بل هو كالثور البهيم، لأن الفتيات ستعبث به، وتسخر منه، وتستخدمه كما يستخدم الفلاح الثيران في حرث الحقول. والكناية في البيت الثاني واضحة، وهي أنه مغفل مثل البهيمة.

٨- **النصح والوعظ:**

في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن زاد ولع الناس بلعبة الشطرنج، وكان من أبرع الناس فيها الخصي أيدون، وكان يلاعب الأمير فغلب الأمير، وكان لمحمد وزير شاعر أديب يدعى تمام بن عامر الثقفي، كان يجيد هذه اللعبة، فلعب يوما مع أيدون وغلبه، فأعجب به الأمير محمد، وأثابه على ذلك، خاصة عندما تكرر انتصاره على الخصي أيدون، ولما اقتنى هذا الشاعر مالا وفيرا من هذه اللعبة شاع الخبر، فمال الناس إليها، لا سيما الشباب، والناس على دين ملوكهم، فلم يرق هذا الاتجاه للشاعر الغزال، خاصة أنه راى ابن أخته منكبا عليها، وقد أهمل أعماله المهمة، فأنشد ناصحا له:

غمني عشقك للشطرنج هذا يا إبراهيم — عمل في غير بر واختلاف ولزوم
إنما أسسها ويحك شيطان رجيم — هبك فيها ألعب الناس فماذا يا حكيم
لعبة الشطرنج شؤم فاجتنبها يا شؤوم — فليقل ما شاء من شاء فقولي مستقيم
إنما جاءت بمهر واحد وهو وخيم — والتي ينزى عليها اليوم من ينزى عقيم
وسيبلو صدق ما فسرت فيها من يروم — إنما هي لأناس شأنهم شأن عظيم
ملك يجبى إليه أو وزير أو نديم — أورجال ورثوا الأموال للدهر سلوم
فاذكر ما بيد القائم عنها إذ يقوم — هل سوى شيء يسير من سرور لا يدوم

فـإذا ما أبلـغ الـبيت فمحسـور ملـوم(٨٦)

انقطاع إبراهيم بن أخت الشاعر أحزنه ؛ لأنه ترك عمله وعكف على ما لا فائدة فيه، ومن حب الغزال له حرص على هدايته وهداية غيره إلى ترك هذه اللعبة المشئومة كما يرى الشاعر لأنها لا خير فيها، لا للفرد ولا للمجتمع، ومن وضع قواعدها شيطان ليشغل الناس عن الأعمال المفيدة.

ويتوجه الشاعر إلى إبراهيم مخاطبا، افرض أنك أتقن الخلق لها، فماذا كسبت؟ لا شيء سوى ضياع الوقت هباء، ولذا يدعوه مباشرة إلى الابتعاد عنها، ويصفه بالشئوم مادام يلعبها، وإذا اعترض على

٨٦- **الديوان**، ص ٧٣- ٧٤.

الشاعر أحد فليعترض فالشاعر يعرف ما يقول، وهو متأكد أنه الصواب، فكثير من اللاعبين سيجادلون أنها تقوي الفكر، ولكن موقف الشاعر منها موقف الرافض. هذه اللعبة السخيفة صورها الشاعر بصورة الفرس التي أنتجت مهرا واحدا مشئوما وخيما، ثم صارت عقيما، أي أن تمام بن عامر كسب منها مالا، ولن يكسب غيره شيئًا، ويؤكد الشاعر أن من يريد أن يعرف حقيقتها سيعرف، وسيعلم صدقه. ويحدد الشاعر من يلعب الشطرنج، إنهم هم الأغنياء المترفون، كالملوك الذين تأتي إليهم الأموال، وهم نائمون في قصورهم، أو وزراؤهم المساعدون لهم، أو من ورثوا أموالا طائلة فلا يحتاجون إلى الجد والاجتهاد لكسب لقمة العيش.

ثم يرجع مرة أخرى بالخطاب إلى ابن أخته إبراهيم قائلا له: انظر إلى اللاعبين حينما ينتهون منها، واسأل: هل ربحوا شيئًا؟ لم يربحوا إلا قليلا من التسلية التي لا يدوم سرورها، حتى إذا رجع إلى داره، وجد نفسه قد ضيع يومه بلا فائدة، وأسرته تحتاج إلى الطعام والشراب، أو الملابس التي تسترها. كان الأولى أن يقضي وقته فيما يعود عليه وعلى أهله بالسعادة. هذه قصيدة جميلة وإن كانت الخطابية والنصيحة المباشرة تغطي على أكثر أبياتها، ولكنها تمثل رأي الشاعر، وتعتبر وثيقة تاريخية لشيوع لعبة الشطرنج في الأندلس في عصر مبكر من تاريخ تلك البلاد.

وكان الغزال يستمد موضوعات الموعظة من الحياة والموت، فبعد موت نصر الخصي بالسم الذي كان أعده للأمير عبدالرحمن الأوسط، صارت داره خرابا، فلما أصبحت كذلك وهي دار فسيحة جميلة، أسكن فيها الأمير مغنيه أبا الحسن علي بن نافع، الملقب بزرياب، وسرى الخبر إلى الناس، فأنشد الغزال قصيدة فيها موعظة للعاقلين، يقول:

ذكر الناس دار نصر لزريا ب وأهل لنيلها زرياب
هكذا قدر الإله وقد تجـ ـري بما لا تظنه الأسباب
أخرجوه منها إلى مسكن ليـ ـس عليه إلا التراب حجاب
لا يجيب الداعية فيه ولا يرجع من عنده إليه جواب
وتغانت تلك المراكب عنه وأميلت إلى سواه الركاب
ليس معه من كل ما كان جمـ ـع إلا ثلاثة أثواب
وتلاشى جميع ذاك فلما يبق إلا ثوابه أو عقاب
عسكر جندوا فليس بمأذو ن لهم عنه أن يكون الحساب

فرأيت الرقاب من أهله ذلـ ـــت وعزت من آخرين رقاب
وكذاك الزمان يحدث في تصـ ـــريف الذل والبلا والخراب
لتعجبت والذي منه أعجبـ ـــت إذا ما نظرت شيء عجاب
لكان الذي تولى الذي كا ن عليه مخلد لا يراب
عمله بعده كفعل امرئ ليـ ـــس عليه بعد الممات حساب
ولعقل الفتى صحيح ولكن حيرته الأوراق والأذهاب[٨٧]

يبدأ الشاعر قصيدته بأن الناس في الأندلس قد تحدثوا بأن زرياب قد سكن في منية نصر، ويرى الشاعر أن زرياب أهل لأن يسكن فيها، وكأنه يلمز هذا المغني، فقد كان يهجوه لأسباب لم يتحدث عنها المؤرخون، ولكن يبدو أن زرياب كان يعيش في ترف مما يناله من الأمير، وكان الغزال يكره المترفين الذين يتخمون من الطعام والشراب، وهناك جياع كثير بينهم، فهو يلمزه، ويتمنى أن يصير مثل نصر. ويرجع الشاعر سكنى زرياب في منية نصر إلى ما قدره الله وقضى به، فالمقادير تجري بترتيب لا نعرفه، لقد حمل المشيعون جثمان نصر من القصر إلى القبر، وحثوا عليه التراب، وهو الذي كان يفتخر بفاخر الثياب، وقد أصبح في قبره صامتا لا يجيب من ناداه، وهو الذي كان يأمر وينهى، ويدير البلد إذا خرج الأمير للغزو. لم يعد نصر يملك شيئا إلا عمله، وصار الموكب إلى غيره، وتولى قوم بعده ولم يعد له منصب، ولا مال، لقد كان جمع كثيرا من المال كما قال الشاعر، ولكن كل ذلك لم ينفعه ولم يأخذ منه شيئا إلا الكفن من ثلاثة أثواب أو قطع، على طريقة الأندلسيين في تكفين موتاهم، انتهى كل شيء، ولم يبق له إلا الثواب أو العقاب، إنه وحده الذي يتحمل جزاء عمله، ولا يقدر أحد من العسكر أن يحمل عنه شيئًا "كل نفس بماكسبت رهينة". لقد ذل أهل نصر، ولم يعد لهم مكان في الدولة، وعز آخرون، وتولوا الوزارة والحجامة، وهكذا الزمان يتقلب بالبرايا، وفيه مصائب وكوارث تخرب كل شيء، وفيه يذل ناس ويعز ناس. ويتعجب الشاعر من زرياب الذي أقام في منزله، لماذا لايتعظ؟ إنه يتصرف كأنه خالد مخلد بعد نصر، وهو يغني ويفرح ويمرح، كأنه لن يحاسب بعد الموت. هل زرياب غبي لا، يؤكد الشاعر أن الذي سكن في مسكن الذي ظلم نفسه عاقل وأن عقله سليم، غير أن المال غره، كثرت الدراهم والدنانير في يده، فتبطر، هذه رؤية الشاعر لزرياب الذي هجاه بوضوح في قصائد أخرى لم تصل إلينا.

تعد هذه الأبيات موعظة جيدة، استمدها الشاعر من حياة نصر وموته، ونسقها ليستفيد بها

٨٧- **المقتبس**، ص ١٥٤، **الديوان**، ص ٣٦-٣٧.

القارئ لو كان يعقل. وتمثل النصائح والوصايا موضوعا مهما من موضوعات الأدب العربي منذ الجاهلية، والذين ينظمونها عادة هم الشعراء الأفذاذ الذين عركوا الحياة، وحرصوا على خير من بعدهم فنصحوهم بأسلوب جميل. وأعظم الإرشادات والمواعظ ما كان نابعا من حوادث الأيام، وما تفعله بالبشر.

تلك كانت الأغراض التي عبر عنها الشاعر في قصائده، ومقطعاته التي وصلت إلينا، ولو وصل إلينا ديوانه الأصلي لوجدنا موضوعات كثيرة، ولعرفنا عن بيئة الشاعر في ذلك العصر معلومات أكثر، ولا ندري لعل ديوانه يظهر يوما من الأيام.

رأي القدماء في الشاعر وشعره:

كيف كان رأي القدماء في الشاعر وشعره؟ هذه قضية مهمة، لأن الشاعر يعبر عن نفسه وعن معاصريه، وهم أدرى به، ولذلك كان لزاما أن نعرف وجهة نظرهم، أو تقييمهم له، إذا رجعنا إلى الحميدي الذي ترجم له وجدناه يقول: "يحيى بن حكم المعروف بالغزال، بتخفيف الزاي، رئيس، كثير القول، مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل، وهو مع ذلك جليل في نفسه وعلمه ومنزلته مع أمراء بلده"(٨٨).

إن الشاعر جليل القدر، ذوعلم غزير في قوله وفعله، وهذه صفات طيبة لشخصية سليمة سامية، وهو بليغ له قدرة على النظم الرائع، نظم كثيرا في موضوعات، بعضها جاد، وبعضها هازل أو ماجن، ولكنه كان محترما، وقد عرف له أمراء بلده قدره، فاختاروه سفيرا له في أشد الأوقات، هذا رأي الجميع فيه، وهو رأي إيجابي.

أما مؤرخ الأندلس مروان بن حيان فيقول في ترجمته ليخامر القاضي: "وانبرى له شاعر قرطبة في ذلك الزمان يحيى بن الحكم الغزال، منتهك الأعراض، ومخزي الرجال، فأكثر هجوه وذمه، ووصفه بالبله والجهل، فندر بذكره..."(٨٩). ثم يقول: "وكان الغزال بذيئا منتهكا للأعراض"(٩٠).

ابن حيان وصف الغزال بأنه شاعر قرطبة، مع أن قرطبة كان فيها في ذلك الزمان الكثير من الشعراء، فهذا حكم بتقدم الشاعر على غيره في ذلك العصر. وأما وصفه بأنه منتهك الأعراض، ووصفه بالبذاءة فليس بصحيح، لأن الشاعر ما كان يهجو إلا من يستحق الهجاء، فمثلا يخامر كان أحمق مغفلا،

٨٨- **الجذوة**، ص ٣٧٤.

٨٩- **المقتبس**، ص ٢٠٠.

٩٠- المرجع السابق، ص ٢٠١.

ضيق الصدر، ومن كانت هذه خلاله لا يصلح للقضاء، ولذا جاء هجاء الشاعر له في موضعه، وقد عزله الأمير لما تأكد من سوئه. والهجاء هنا مفيد اجتماعيا، حتى لا يتعرض للقضاء إلا من تتوفر فيه شروطه. وهجاؤه للأغنياء المسرفين الذين يتفاخرون في البنيان وفي القبور له حق فيه، وكذلك هجاؤه لشهود الزور وغيرهم من أهل السوء آت في موضعه، وليس من البذاءة في شيء، فابن حيان أصاب في جانب، وأخطأ في جانب آخر، وابن حيان في تاريخه المسمى بالمتين، هجا أكثر معاصريه نثرا، وكتب كتابة عنيفة، حتى قيل لم يسلم من لسانه إلا ابن جهور حاكم قرطبة. فهل كان ما كتبه عن أمراء الطوائف بذاءة؟ لا إنه محق، وهم قد خانوا الأمانة، وضيعوا الأندلس، وأعطوا الجزية لعدوهم وهم صاغرون، على النقيض من عزة الإسلام والمسلمين.

وإذا جئنا إلى ابن دحية وجدناه يعجب بالشاعر وشعره، ويراه يوازي شعراء المشرق الكبار، ويباهي به، ويرى أن أهل المشرق يتنقصون الأندلسيين تعصبا للمشارقة، وليس إحقاقا للحق، فهو يقول عن الغزال: "القاعد على كيوان، شاعر ذلك الأوان، وقد أثبت له من قوله ما يشهد بإبداعه، وحسن تصرفه في المعاني، واختراعه، وطول يده في الأدب، وامتداد باعه"(٩١). لقد وصفه بأنه شاعر العصر، ذلك الآوان في الأندلس، أي المقدم على كل الشعراء الأندلسيين، وربما قصد غيرهم أيضًا، ونعته بالإبداع والاختراع، وحسن التأتي للمعاني، وقدرته على النظم في جميع الموضوعات. وعندما أورد الأبيات الخاصة بمدح الأمير عبدالرحمن، أثنى على التشبيب فيها، فقال: "وفيه (أي في هذا الشعر) تشبيب حسن كثير اختصرناه لطوله..."(٩٢) فغزل الشاعر من النوع الحسن في نظر الناقد.

ويوازن بينه وبين البحتري في معنى فيقول: "كنا نعجب بقول البحتري، ونستغربه في قوله لجعفر المتوكل:

فلو أن مشتاقا تكلف غيرما في وسعه لسعى إليك المنبر

حتى رأينا قول الغزال، وعلمنا أنه سبق إليه بزمانه، على أن البحتري استحق أيضًا بإحسانه، لأنه أتى بالمعنى في بيت واحد، واختصره اختصارا حسنا..."(٩٣). وهويقصد أن الغزال قد سبق البحتري في هذا المعنى الذي جاء في قصيدته:

٩١- **المطرب**، ص ١٣٣.

٩٢- المرجع السابق، ص ١٣٤.

٩٣- **المطرب**، ص ١٣٤-١٣٥.

منبره يهتف من وجده إليك بالسهل وبالمرحب
أطربه الوقت الذي قد دنا وكان من قبلك لم يطرب
هفا به الوجد فلو منبر طار لوافى خطفة الكوكب

هذا معنى جيد جدا، ولكن البحتري اختصره في بيت واحد، وأحسن ديباجته، والغزال أسبق في العصر من البحتري. ويورد ابن دحية بيتا آخر من القصيدة عينها، هو:

لا يمكن الناظر من رؤية إلا التماح الخائف المذنب

ثم يعلق عليه بقوله: "حسن جدا في معنى الهيبة، وقد تأثروا بشعر الغزال، وأخذوا بعض اختراعاته وإبداعاته. وعلق أيضًا هذا المؤرخ الأديب ابن دحية على الأبيات التي وصف فيها الغزال الأهوال التي تعرض لها هو وصحبه أثناء سفرهم في البحر إلى بلاد الدانمارك قائلا: "وهذا القصيد يجول عليه رونق الانطباع، وهو القريب غير المستطاع"(٩٤). فهو يحكم على شعر هذا الشاعر بالانطباع، وعدم التكلف، وأنه من السهل الممتنع الذي لا يقدر عليه إلا صاحبه، وشعر الطبع مقدم عند العرب، وقد سبق القول: إنه يضعه في مصاف عمر بن أبي ربيعة وبشار والعباس بن الأحنف، ولكن المشارقة يظلمون الأندلسيين. تلك هي آراء القدماء في شعر يحيى بن حكم الغزال، وهي تبين عن توقيرهم له، وتوضح اعترافهم بتقدمه على باقي شعراء الأندلس في عصره.

آراء المعاصرين:

إن الدكتور أحمد هيكل يرى أن الغزال "كان من ألمع شعراء فترة صراع الإمارة، بل كان من أكبر شعراء الأندلس في كل الفترات، وذلك لأصالته الشعرية، وخصائصه الفنية، وسبقه إلى موضوعات النقد الاجتماعي والأخلاقي، واتضاح بعض النظرات الحكمية واللمحات الفلسفية عنده، وتصوير شعره لعصره وحياته إلى حد كبير"(٩٥).

هذا رأي الدكتور هيكل، وهو أن الغزال أعظم الشعراء في فترة الإمارة الأموية، بل زاد على ذلك بأنه أكبر شعراء الأندلس كلهم في جميع عهودها، وعلل لرأيه بأن شعر الغزال أصيل، أي نابع من ذاته، وليس محاكاة لأحد، ولأنه يتميز بميزات فنية جميلة كالقص والحوار والتصوير الجميل، ولأنه يحتوي موضوعات نقدية، نقد فيها الشاعر كل ما اطلع عليه من أفعال معاصريه، مما يخالف العقل والدين

٩٤- المرجع السابق، ص ١٤٠.

٩٥- أحمد هيكل، **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة**، دار المعارف بمصر، ط ١٤، ٢٠٠٤م، ص ١٦٦.

والمنطق السليم، وكذلك لاحتوائه على الحكمة التي هي خلاصة تجاربه للحياة.

وأما الدكتور إحسان عباس فيقول عن الشاعر الغزال: "شاعر الأندلس المقدم ـ في نظري ـ على جميع الشعراء هذه الفترة، وربما كان ابن شهيد أعمق منه ثقافة، وأبعد بالنقد، وكلامه أشد أسرا وأجزل جزالة، ولكن الغزال أقرب إلى الطبع، وأبعد عن التكلف، وأعمق تجربة، وأنفذ نظرا، وأغور حكمة"(٩٦).

يتفق هذا الرأي مع رأي الدكتور أحمد هيكل في تقديم الشاعر على جميع الشعراء الأندلسيين في فترة الخلافة الأموية، ثم يزيد موازنة بينه وبين ابن شهيد الذي عاش في أواخر الدولة الأموية، وعاصر الفتنة والسقوط، فيقرر أن الغزال أقرب للطبع في شعرة، وأعمق في التجارب والموضوعات والحكمة، وإن كان ابن شهيد ذا أسلوب أمتن ولغة أجزل.

وهو يأخذ على الغزال عدم عنايته الكاملة بتزويق اللفظ، فيقول: "ومن قلة احتفاله بصقل المبنى الشعري نجد على شعره آثار الجفاء، وقلة التحلية اللفظية"(٩٧). ربما كان هذا صحيحا في بعض الأبيات، وهي قليلة، ولكن عامة شعره جميل المبنى، عميق المعنى، يسيرا سلسلا، ولا يصح المقارنة بينه وبين الشعراء الذين يحككون شعرهم ويعيدون فيه النظر.

وأما رأي الدكتور عمر فروخ فيتمثل في قوله: "كان (الغزال) أديبا وشاعرا مطبوعا، صاحب بديهة وابتكار في المعاني، وإن كان في أسلوبه يطبع على غرار المشارقة، مع قلة عناية بالديباجة، إذا كانت الديباجة تحول بينه وبين كمال التعبير عن المعنى كما كان شأن ابن الرومي"(٩٨).

رأيه كما نرى في نصه أن الغزال شاعر مطبوع ذو موهبة، وإنه يبتكر المعاني، وهو يتفق في رأيه مع السابقين، ثم يأخذ عليه عدم عنايته بالديباجة أو التزويق، وهو يشبهه بابن الرومي، ويظن أنه يحاكي شعراء المشرق. إن حكمه أن الشاعر ذو طبع وموهبة حكم صحيح، وكذلك قوله: إنه يبتكر المعاني، ولكن قوله: إن الغزال يقلد المشارقة، أو يطبع على غرارهم، فغير صحيح، لأن الغزال لم يقلد أحدا، وإنما عارض أبا نواس في خمريته، لكي يثبت قدرته على الشعر، ويؤكد أن الأندلسيين ليسوا بأقل من المشارقة، وكذلك صنع مع أبي حكيمة، مع أنه مستقيم وليس بماجن.

٩٦- إحسان عباس، **تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة دار الثقافة**، بيروت، ط ٧، ١٩٨٥م، ص ١٦٥.

٩٧- المرجع السابق، ص ١٦٥.

٩٨- عمر فروخ، **تاريخ الأدب العربي**، دار العلم للملايين، بيروت، ج ٤، ص ١١٦.

ويضع الدكتور شوقي ضيف الغزال ضمن شعراء الهجاء في الأندلس[٩٩]وهو ـ بلا شك ـ متأثر بكلام ابن حيان مؤرخ الأندلس الذي وصف الغزال بأنه هجاء. ولكننا بعد أن حللنا شعر الغزال، لا نتفق مع رأي ابن حيان ولا شوقي ضيف، لأن الشاعر نظم كثيرا في كل الأغراض، والهجاء أحدها، ولم يكن يهجو من أجل الهجاء، أو أن طبعه شرير، وإنما كان يحمل على المنحرفين من رجالات الدولة كالعمال والولاة والقضاة الجهلاء، ولم نجد له هجاء في الناس البسطاء، إلا كلاما عاما في نقد المجتمع. والملحوظ أن أصحاب العقول الكبيرة من الأدباء والمفكرين غالبا لا يكونون راضين عن عصرهم، هذا في كل العصور، وجميع البلدان، حتى في البلاد المتقدمة الآن.

أما رأيي فهو أن الغزال كان شاعرا عظيما من فحول الشعراء، والفحولة عند العرب تعني غزارة الإنتاج وجودته، ولقد كان الغزال كثير الشعر، كما قال الحميدي، وأن ديوانه كان كبيرا، ولو وصل إلينا لكان رأي كثير من دارسيه تغير إلى ما هو أفضل مما قالوا. وقد كان هذا الشاعر مطبوعا ذا موهبة مساعدة بحيث كان يقرض الشعر، قصائد ومقطعات في جميع أحداث عصره. ولهذا الشاعر قدرة على القص، لذلك تأتي الصورة الشعرية عنده ممتدة متآلفة، وهو يميل إلى التحليل والتعليل في شعره، كأنه يريد إحاطة المعنى، وتوصيله إلى القارئ كاملا. لقد كان الغزال حسنة من حسنات الأندلس.

A Reading in the Poetry of Ya┌y┐ b. ┌akam al-Ghaz┐l

The writer shows a glimpse of the poetical genius of this great Spanish poet of the second and third century Hijrah. He provides a detailed introductory survey of his poems, lyrics in particular, to demonstrate the profound literary sensitivity and exceptional skills of poetic expression that characterize him. Yet, the writer notes with surprise, the place which such a gifted poet should have occupied in the literary annals has been almost denied to him.

Apart from the literary achievements of Yahy┐ b. al-Ghaz┐l, which the writer profusely illustrates in this paper with his own explanatory comments, he shows the highlights of this poet's career in the Andalusian royal court in which he occupied a high place of honour.

****

٩٩- شوقي ضيف، **تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات، الأندلس**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٢٣٠.